المكتبة الثقافية

٢٣

الدكتور أحمد أحمد بدوي

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي

الإدارة العامة للثقافة

١٥ أكتوبر ١٩٦٠

المكتبة الثقافية
٢٣

صلاح الدين الأيوبي

بين شعراء عصره وكتابه

الدكتور أحمد أحمد بدوي

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
الإدارة العامة للثقافة

١٥ أكتوبر ١٩٦٠

الناشر



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

صلاح الدين الأيوبي من كبار الأبطال الذين لهم ذكر خالد في تاريخ الإسلام . يقترن اسمه العظيم بالحروب الصليبية ، وباسترداد فلسطين و بيت المقدس من الفرنج الذين اغتصبوا تلك الديار حينا من الزمن طويلا .

وقد كان هذا البطل معقد آمال المسلمين في عصره ، رأوا فيه القائد الملهم القدير على استرداد الوطن السليب من يد أعدائه الطغاة الظالمين .

ورأى قبل أن يهاجم عدوه أن يعتمد على وحدة يشتد بها ساعده ، إيماناً منه بأنّ تلك الوحدة هي الدعامة القوية لتحقيق الهدف الذي وضعه نصب عينيه ؛ فوحّد سوريا ومصر تحت رايته وأقبل بهذا الوطن الموحّد على العدو ، فشتت جموعه وحطم قواه .

كانت شخصية هذا البطل مثار إعجاب معاصريه ، وموطن

حبّهم وتقديرهم ، والقارئ لتاريخ الرجل يلمس مدى هذا الإعجاب والحب والتقدير .

ورأى فيه الشعراء والكتاب مثلا من الأمثلة العليا للإنسانية فسجّلوا فى أدبهم سماته الخلقية ، وجهاده المتصل ، ووفدوا عليه يسمعونه شعرهم ، أو يرسلون إليه بهذا الشّعر إن لم يستطيعوا أن يفدوا إليه ، فكان من ذلك مقدار ضخم من الأدب : شعره ونثره ، بطله صلاح الدين .

وقد أردت أن أدرس هذا الأدب ، لأرى كيف صور ذلك البطل ، موازنا بين الصور كلما استطعت ، واقفا عند الخلجات النفسية التى تنبض بها أبيات الشعر ، وتتحدث عن آمال الشعب وأمانيه ، مقدما بين يدى ذلك دراسة تاريخية موجزة لصلاح الدين ، ليتم بذلك رسم حياته من الناحية التاريخية ، وسماع صداها فى الشعر والنثر معاً .

والله يهدى إلى سواء السبيل ؟

حياة مجيدة

— ١ —

كانت الحياة السياسية بمصر فى أواخر العصر الفاطمىّ قد نالها الفساد والضعف ؛ لتنافس الوزراء فى الاستئثار بالحكم، والانفراد بالسلطان ؛ وزادهم شراهة فى التطلّع إلى كرسى الوزارة والتمسّك به أن الخليفة يومئذ لم يكن له من الأمر من شىء ، لصغر سنه حيناً ، وضعفه حيناً آخر .

وكان آخر من جلس على عرش الخلافة الفاطمية طفلا لم يبلغ سنّ الرشد لقّب بالعاضد لدين الله، اختاره الوزير طلائع ابن رُزّيك ، ليكون أداة فى يده ، لا حول له ولا قوّة ، وثقلت وطأة الوزير على القصر ، فدبرت الأسرة المالكة له مكيدة راح ضحيّتها ، فمات جريحاً بعد نحو عام من ولاية العاضد فى رجب سنة ٥٥٦ هـ .

ولم يكد يتولّى ابنه : رُزّيك الوزارة للعاضد ،حتى حدثت النفرة بينه وبين والى الصعيد شاور السعدىّ الذى قلب لابن مولاه ظهر المجن ، وأقبل إلى القاهرة فى جمع حاشد فرّ أمامه

رُزّ يك ، ولكنه لم ينج ، بل قتله « طىّ بن شاور » ، وخرّبت دور بنى رزّيك ، وأخذت أموالهم .

واستقبل الشعب قتل « رزّيك » بنفور وألم ؛ فإن المدة التى قضاها وزيراً وهى عام وبعض عام حبّبت الناس فيه، إذ أعفاهم من ضرائب كانت باقية عليهم ، ولذلك خذلت القاهرة شاور عندما خرج عليه ضرغام فى رمضان سنة ٥٥٨ هـ ، وأخرج شاور من القاهرة ، وقُتِلَ ولده طىّ ، وتولى ضرغام وزارة العاضد .

التجأ شاور إلى نور الدين محمود صاحب الشام ، وطلب منه المعونة على ان يقدم إليه ثلث إيراد مصر سنويا ، ويكون « شيركوه » قائد جيش نور الدين مقيما بعساكره فى مصر ، وأن يتصرف « شاور » نفسه بأمر « نور الدين » ؛ فبقى أمير الشام يقدم رجلا ويؤخر أخرى : « فتارة يحمله رعاية قصد شاور له ، ورغبته فى التّقوّى على الفرنج ؛ وتارة يمنعه خطر الطّريق وأنّ الفرنج فيه ، وخوفه من أن شاور لا يفى له إن استقرّ له الأمر فى مصر ». وأخيراً تغلب جانب الأمل فى نفسه ؛ فجهّز جيشاً من رجال أقوياء ممتازين جعل قيادتهم « لأسد الدين شيركوه » ، ومعه ابن أخيه « صلاح الدّين » ، وجدّ الرّكب

فى المسير إلى مصر. وعند القاهرة تمّت هزيمة «ضرغام» وقتله.
عاد «شاور» إلى الوزارة ، وقرّ رأيه على أن ينفرد بمصر ، ويبعد عنها نور الدين ، فأرسل إلى شيركوه يأمره بالعودة إلى الشام ، فأبى ، وطلب منه أن ينفّذ ما اتفق عليه هو ونور الدين ، فلم يجبه شاور ، وفكر فى الاستنجاد بالفرنج ، فأرسل إليهم يخوفهم من نور الدين إن تم له توحيد مصر والشام تحت رايته ، وكانوا على يقين من الملكة إن تم لنور الدين ذلك ؛ فقد ذاقوا منه الأمرّين وليس تحت يده سوى موارد «سورية» وحدها ؛ فكيف إذا ضم إلى ذلك موارد مصر وثروتها ، فلم يترددوا فى إجابته ، وأرسلوا جيشاً لجبا إلى مصر ، حاصر هو وجيش «شاور» «أسد الدين شيركوه» ، وانتهى الأمر بصلح يعود به جيشا الفرنج وأسد الدين إلى الشام ؛ وهكذا أفلت «شاور» من «نور الدين» والفرنج معاً فى ذى الحجة سنة ٥٥٩ هـ .
ولكن لم يغب عن خاطر الفريقين أهمية مصر ، وقيمة ثروتها ، وعظم مكانتها ، فحاول أن يضمها كل إلى بلاده ، فجاء إلى مصر جيش نور الدين مرة ، وجيش الفرنج أخرى ، وعاد الجيشان من حيث أتيا ؛ ولكن الفرنج طلبوا من «شاور» أن تكون لهم حامية بالقاهرة ، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ، حتى

لا يستطيع نور الدين أن يرسل جنده إليهم ، ويكون لهم من دخل مصر فى كل سنة مائة ألف دينار . وبذلك نجح الفرنج فى وضع يدهم على مصر والاستعانة بأموالها ، وذلك بفضل « شاور » وسوء تدبيره .

ظلّ الفرنج أكثر من عام فى مصر ، ينالون المصريين بالأذى ، ويتدخلون فى شئون الإدارة ، كلما بدا لهم ، وطال منهم العسف والظلم ، ففكروا فى الاستيلاء على مصر استيلاء كاملا ، وأرسلوا إلى ملك بيت المقدس : أمرى Amalric يستدعونه ؛ ليملكها ، وهونوا عليه أمرها ، فبعد تردد قليل أقبل على مصر بجيش ضخم نازل مدينة « بلبيس » فى مستهل صفر سنة ٥٦٤ هـ ، واستولى عليها بالسيف ، ونهبها ، وأثخن فيها قتلا وأسرا ، ثم سار إلى القاهرة ، وقد سبقه إليها ما نشره من الرعب ، وما بثه من الدمار ؛ وهنا لم يجد العاضد بدامن أن يرسل إلى « نور الدين » يستنجد به ، ويستحثه على القدوم ؛ لإنقاذ مصر من الفرنج ، وأرسل فى الكتب شعور النساء ، وقال : هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك ، لتنقذهن من الفرنج ، وانضم الناس إلى القاهرة ، ونادى « شاور » ألا يقيم أحد بالفسطاط ، فانتقل منها الناس ، وتركوا أموالهم

وأثقالهم ، ونجوا بأنفسهم ، ونزلوا بالقاهرة فى المساجد والحمامات ، والأزقة ، وعلى الطرقات ؛ وبعث « شاور » إلى الفسطاط بعشرين ألف قارورة نفط ، وعشرة آلاف مشعل نار ، وفرق ذلك فيها ، فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء ، وصار منظراً مهولا ، واستمرت النار تأتى على مساكن مصر أربعة وخمسين يوما ، وحارب ملك الفرنج القاهريين الذين استماتوا فى الدفاع عن بلدهم ؛ فطلب الفرنج الصلح على مال يأخذونه ، وآبوا راجعين إلى بلادهم ، بينما كان « أسد الدين شيركوه » يحث الخطا إلى مصر ، حتى وصل إلى القاهرة بعد خروج الفرنج ، فسر به « العاضد » وخلع عليه ، بينما أراد « شاور » أن يتخلص منه كسابق عهده ، ولكن الأمر انتهى بقتل « شاور » فى ١٧ من ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ ، وبعث العاضد منشوراً بالوزارة إلى أسد الدين شيركوه الذى مات بغتة بعد نحو شهرين من ولايته فى يوم السبت ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ ، وتولى الوزارة بعده ابن أخيه صلاح الدين ، ولقب بالملك الناصر .

— ٢ —

وضع صلاح الدين نصب عينيه منذ تولى وزارة مصر أن يكسب حب الجمهور ، وأن ينال ولاء الجيش ؛ ليتخذهما العدة فيما يهدف إليه من كبار الآمال ؛ فقد قال ابن شداد فى كتابه النوادر السلطانية : « ولقد سمعت منه يقول : لما يسر الله لى الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل ؛ لأنه أوقع ذلك فى نفسى » . وليس بغريب أن يمر هـذا الخاطر بقلب صلاح الدين ، فما لدى مصر من الرجال والمال جدير أن يثير مثل ذلك .

وغاظ الفرنج أن تفلت مصر من أيديهم ، وأن يقوى بها نور الدين ، فيصبحوا محصورين بين قوته فى الشمال وقوته فى الجنوب ، فأجمعوا أمرهم على مهاجمة دمياط ؛ ليتخذوها قاعدة يهاجمون مصر منها ، فاجتمعوا عليها ، وحصروها ، وضيقوا على من بها ، فوقف صلاح الدين جهوده على إنقاذها ، فأرسل إليها كل جنده ، وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر ، وأرسل إلى نور الدين يستعين به ، فأمده بالجند يتلو بعضها بعضاً ، وخرج هو نفسه إلى بلاد الفرنج يغير عليها ؛ فلما رأى الفرنج

تتابع الجند ، وقوة الدفاع ، ومهاجمة بلادهم فى الشام ، رحلوا عن دمياط ، بعد أن أقاموا عندها خمسين يوما ، وقد نهبت آلاتهم ، وأحرقت مجانيقهم ، وقتل منهم خلق كثير ، وقوى مركز صلاح الدين بهذا النصر ، وظهر أمام المصريين بمظهر القدير على حماية البلاد . ولم يكتف بهذا بل أخذ يتجهز ، لا ليقف موقف المدافع ، بل موقف المهاجم لأعدائه ، ففى جمادى الآخرة سنة ٥٦٦ هـ خرج صلاح الدين إلى الشام ، فأغار على غزة وعسقلان والرملة ، ومضى إلى أيلة ، وكان بها قلعة فيها جماعة من الفرنج ، وساعده الأسطول فى البحر ، فافتتحها ، وقتل من فيها من الفرنج ، وملأها بالرجال والعدد ، وكان على الحجاز منها خطر عظيم ، وعاد صلاح الدين إلى مصر منتصراً .

القضاء على الخلافة الفاطمية :

قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية ، فى مطالع سنة ٥٦٧ هـ ، ولم يكن فى ذلك مفاجأة للمصريين ، بل كانوا يتوقعونه منذ استولى « شيركوه » على الوزارة فى مصر ، فقد كان سنّيا يدين بالولاء لأميره السُّنّى نور الدين الذى كان يدين لبغداد

بالصلة الروحية ، وساعد على إعدادهم لهذا التغيير ما بدأ به صلاح الدين من عزل القضاة الشيعيين وإقامة قضاة سنّيين فى جميع البلاد ، وبدأ هو وبعض أفراد أسرته بإنشاء المدارس للسنيين . وأكبر ظنى أن أسماء الخلفاء الفاطميين فى هذه العهود الأخيرة ما كانت لتثير فى نفوس سامعيها معنى سوى الإشفاق على شخصيات هزيلة ليس لها حول ولا قوة ؛ فلم يجد المصريون معنى للاحتفاظ بأسماء هذه الشخصيات ، ولا سيما أن صلاح الدين قد كسب القلوب بشجاعته وعدله وحسن تدبيره فى دفع العدو عن البلاد ، وقد كان ذلك أكبر ما تحتاج إليه الأمة المهددة بالعدو فى تلك العصور ، ومن أجل هذا لم يبد الشعب رغبة فى إعادة هذه الدولة ، وكل ما بذل من محاولات لإعادتها كان من جانب طائفة طامعة فى فوائد مادية ، ولم يستجب الشعب لهذه المحاولات .

وأخذت الظروف تهيئ لصلاح الدين توحيد مصر والشام تحت رايته ، فقد مات نور الدين فى شوال سنة ٥٦٩ هـ ، وبذلك أمن صلاح الدين أن يكون لأحد سلطان فعلىّ عليه ، وصار هو الحاكم الحقيقى لمصر وما فتحه من بلاد المغرب واليمن ، وارتقى على عرش دمشق الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود ، وكانت سنه

يومئذ إحدى عشرة سنة ، فأثار صغر سن الملك أطماع الأمراء، ورأى صلاح الدين أن يوقف هذه الأطماع . ولعل صلاح الدين كان يرمى إلى أن يصبح الوصى على العرش ؛ فتتحد البلاد كلها تحت سلطانه الفعلى ، ويقوم بتنفيذ برنامجه فى طرد الصليبيين ، فعزم صلاح الدين على قصد الشام ، ولاسيما أن الفرنج طمعوا فى البلاد بعد وفاة نور الدين . ولكن أسرة الصالح إسماعيل أحست بالخطر الذى يهددها من ناحية صلاح الدين ، فما إن قدم إلى الشام حتى ترك الصالح دمشق ومضى إلى حلب ، ودخل صلاح الدين دمشق فى أول ربيع الآخر سنة ٥٧٠ هـ ، ودارت بينه وبين أسرة الصالح عدة وقائع انتهت بصلح بينه وبينهم على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها . وظل صلاح الدين يعمل على توحيد الشام وبلاد الجزيرة وديار بكر، حتى تم له ما أراد ، بعد موت الصالح إسماعيل سنة ٥٧٧ هـ، وعقد الصلح بينه وبين صاحب الموصل سنة ٥٨١ هـ على أن يخطب لصلاح الدين على منابر بلاده ، ويضرب اسمه على السكة ، وأن يسرع إليه بجيشه إذا طلبه صلاح الدين إلى ميدان القتال ، فلم يَعُدْ فى تلك الرقعة من الأرض من هو غير خاضع لصلاح الدين، كما أن أخاه سيف الإسلام فتح له بلاد الحجاز، وضرب الدراهم

باسم صلاح الدين وهكذا اتحد قسم كبير من العالم العربى تحت لواء بطل يستطيع أن يقوده إلى الظفر والنصر . اتحدت مصر والشام والموصل وديار الجزيرة والحجاز واليمن وجزء من بلاد المغرب ، ووضعت ماتملكه من الإمكانيات ليحقق بها صلاح الدين ما كان يرنو إلى تحقيقه المسلمون يومئذ من تحرير فلسطين من يدى مغتصبيها .

ولم يقصر صلاح الدين ، فقد أرسل إلى جميع أجزاء إمبراطوريته يستنفز الناس لقتال الفرنج ، يحببهم فى الجهاد ، ويحثهم عليه ، ويأمرهم بالتجهز له ، فأقبلت الجيوش من كل حدب ، ومضى صلاح الدين على رأس جيشه ، فالتقى بالفرنج عند « حطّين » ودارت عندها معركة لم يذق الفرنج مثلها منذ قدموا من ديارهم غازين بلاد الشام ، ومضوا بين أسير وقتيل .

لم ينتظر صلاح الدين حتى يجمع العدو شمله المبدد ، بل مضى يتابع انتصاراته ، وأخذت مدن العدو تسقط فى يده ، الواحدة إثر الأخرى ، حتى إذا سقطت « عسقلان » والبلاد المحيطة بالقدس شمر عن ساعد الجد ، وذهب إلى بيت المقدس يريد فتحه ، وهنا رأى العدو أنه لا قبل له بالجيش الزاحف ، فاستكان وطلب الأمان ، وفتحت المدينة أبوابها لاستقبال صلاح الدين

يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ ؛ وقد سمح السلطان للفرنج المدنيين ـ إذا شاءوا ـ أن يعيشوا رعية له ، أما المحاربون فعليهم أن يخرجوا بنسائهم وأطفالهم خلال أربعين يوما ، على أن يدفع كل رجل عشرة دنانير ، وكل امرأة خمسة ، وكل طفل دينارا ؛ فإذا لم يستطع واحد أن يدفع فهو أسير . غير أن السلطان لم ينفذ ذلك حرفيا ؛ فقد دفع هو نفسه فدية عشرة آلاف ، ودفع أخوه الملك العادل فدية سبعة آلاف ، بينما مضى عدة آلاف بدون فداء . وقد حمل الناس والكهنة ذخائرهم من غير أن يتعرضوا لأقل أذى ، بل قدمت الدواب لكثير من الذين لا يجدون ما يركبون .

لقد كانت إنسانية صلاح الدين على النقيض تماما من وحشية أولئك الذين فتحوا القدس من يد المسلمين ، ومن قسوة أمراء الصليبيين ، فإن كثيرا ممن تركوا بيت المقدس مضوا إلى أنطاكية غير أن أميرها « بيمند » Bohemond طردهم ، وأبى أن يقبلهم ، كما أغلق صاحب طرابلس أبواب مدينته في وجوههم ؛ فمضوا إلى بلاد الإسلام حيث استقبلوا هناك أحسن استقبال .

أصلح صلاح الدين ما تخرب من المدينة ، ورمم ما تهدم من المساجد والمدارس ، وحكم المدينة حكما يسوده العقل والحرية ،

على العكس تماما من حكم الصليبيين الجائر .

ومضى صلاح الدين من القدس إلى صور، ولكنه لم يفتحها، فقد تجمع فيها الصليبيون من كل فج ، وأبى قائدها أن يسلمها . وهنا يذكر المؤرخون خطأ صلاح الدين حينما سمح بهذا التجمع فى تلك المدينة ، ليتخذوها موطئ قدم لهم .

ترك صلاح الدين صور ، ومضى إلى شاطئ البحر ؛ فأخضع ما بأيدى الصليبيين من مدنه ، ولم يمض عام ٥٨٤ هـ حتى كانت صور هى الخطر الوحيد الذى يهدد صلاح الدين .

— ٣ —

كانت انتصارات صلاح الدين وسقوط بيت المقدس سببا فى قيام حرب صليبية أخرى ؛ فقد ثارت ثائرة أوربا ، وبذل رجال الدين كل جهد ، ليوقظوا غضب الجماهير ، وليشركوا ملوك أوربا وأمراءها فى الحرب ، وأرسل صاحب « صور » صورة القدس فى ورقة ، وصور فيها صورة « كنيسة القيامة » التى يحجون إليها ، ويعظمون شأنها ، وفيها قبة قبر المسيح فى حالة مهينة ، وأبدى هذه الصورة فى الأسواق والمجامع ، وحملها القسس ورءوسهم مكشوفة ؛ وقد كللت هذه الجهود بالنجاح ،

إذ اشترك فى الحملة الملوك الثلاثة أعظم ملوك أوربا ، وهم : «فردريك بارباروس» إمبراطور ألمانيا، «وفيليب أوغسطوس» ملك فرنسا ، و « ريتشارد » قلب الأسد ملك إنجلترا .

أقبل الصليبيون من كل مكان ، والتأم شملهم فى صور ، وقر رأيهم على مهاجمة «عكا» ؛ لحصانة موقعها ، ولأن الطريق إليها شاطئ البحر حيث تحميهم سفنهم ، وكان البحر أعظم مساعد لهم ، يحمل إليهم المواد الحربية والمؤن والرجال . وقد وصلوا أمام «عكا» فى ١٥ من رجب سنة ٥٨٥ هـ ، ووضعوا عليها الحصار. عندما سمع صلاح الدين بحركة الفرنج جمع أمراءه للاستشارة ، وكان رأيه أن يهاجمهم فى الطريق قبل أن يصلوا إلى «عكا» ، ولكن أمراءه أقنعوه بأن الخير فى أن تدور المعركة أمام «عكا» . وعندما ذهب صلاح الدين إلى المدينة وجد الفرنج قد أحاطوا بها ، ومنعوا كل اتصال معها ، فعسكر صلاح الدين فى مواجهتهم. ويقول المؤرخون : لو أن صلاح الدين عمل تبعا لرأيه الخاص ، وهاجم الصليبيين قبل أن يحاصروا المدينة لأنقذها ، ولكن تلك إرادة الله .

أقبل على صلاح الدين بعض المدد ، بينما كانت الإمدادات تترى على الصليبيين من البحر . وفى أول شعبان دارت معركة

زحزحت الصليبيين عن أماكنهم ، واستطاع المسلمون أن يتصلوا « بعكا » ، فغيروا حاميتها ، وأمدوها بالمئونة ، وكلفوا الصليبيين كثيرا من القتلى ، فتراجع هؤلاء خلف خيامهم .

كانت قوى صلاح الدين مبعثرة فى البلاد ، فكان جيش يراقب يومئذ أمير «أنطاكية» ، وآخر مقيم فى « الرها» مواجه لطرابلس للدفاع عن الحدود ، وثالث يراقب « صور » ورابع فى دمياط والإسكندرية ؛ ليحتاط ضد الصليبيين القادمين من البحر ؛ ولذلك كان جيش السلطان أقل عددا من جيش الصليبيين. ولقد طمع الفرنجة فى صلاح الدين، وأرادوا نزاله قبل أن تصل إليه أمداد أخرى ، فهاجموه فى معركة فقدوا فيها عشرة آلاف رجل ، وجمع صلاح الدين أمراءه وأرباب مشورته ، وأمرهم بالإصغاء إلى كلامه ، ثم قال : « باسم الله ، والحمد لله ، والصلاة على رسول الله ، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا ، قد نزل فى بلدنا ، وقد وطىء أرض الإسلام ، وقد لاحت لوائح النصر عليه إن شاء الله تعالى ، وقد بقى فى هذا الجمع اليسير ، ولابد من الاهتمام بقلعه ، والله قد أوجب علينا ذلك ، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ، ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل ، وهو واصل ، وهذا العدو ، إن بقى وطال أمره إلى

أن يفتح البحر جاءه مدد عظيم ؛ والرأى كل الرأى عندى مناجزتهم ؛ فليخبرنا كلٌّ منكم بما عنده فى ذلك » ؛ فأخذ المجلس يقلب الأمر على وجوهه ، وقر الرأى على أن يبقى العسكر أياما، حتى يستجم من حمل السلاح فقد أخذ التعب منهم ، واستولى على نفوسهم الضجر ، وتكليفهم أمرا على خلاف ماتحمله القوى لاتؤمن غائلته ، والناس لهم خمسون يوما تحت السلاح وفوق الخيل ، والخيل قد ضجرت من عرك اللجم ، وسئمت نفوسها ذلك . وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها ، ويصل الملك العادل،ويشارك فى الرأى والعمل، ويعود من شذّ من العساكر، واتفق الجمع على ذلك ، ورأوه مصلحة . وكان ذلك فى أواخر شعبان سنة ٥٨٥ هـ .

وأما الفرنج فقد استردوا هدوءهم ، وأعادوا حصار « عكا » وحفروا خندقا حول معسكرهم ، ليحموا أنفسهم ضد هجمات صلاح الدين ، وأقاموا حائطا يحتمون خلفه إذا هزموا .

ومر عام ٥٨٦ هـ ، و« عكا » محاصرة ، ولم يستطع جيش الصليبيين دخول المدينة ، ولم يوقع جيش صلاح الدين بهم معركة حاسمة تضطرهم إلى رفع الحصار عن المدينة .

ووردت الأخبار بمسير إمبراطور ألمانيا بجيش لجب ؛ فجمع

صلاح الدين امراء دولته وأرباب الآراء ، وشاورهم فيما يصنع ، فاتفق الرأى على ان يسير بعض العسكر إلى البلاد المتاخمة لطريق عسكر العدو ، وأن يقيم باقى العسكر أمام جيش الصليبيين المحاصر « لعكا » .

ولما علم الصليبيون أن العساكر قد تفرقت لمقابلة إمبراطور الألمان ، أجمعوا أمرهم على لقاء صلاح الدين ، فدارت معركة رهيبة فى ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ٥٨٦ هـ ، امتلأ فيها ميدان القتال بقتلاهم وجرحاهم ، فخمدت جمرتهم ، ولانت عريكتهم ، وأشار المسلمون على صلاح الدين بمباكرتهم القتال ومناجزتهم وهم على هذه الحال من الهلع والجزع ، فاتفق أنه وصل من الغد كتاب من حلب ، يخبر بموت ملك الألمان وما أصاب أصحابه من الموت والقتل والأسر ، وماصار إليه أمرهم من القلة والذلة ، واشتغل المسلمون بهذه البشرى والفرح بها عن قتال من بإزائهم . ولكن لم يكد ينقضى يومان حتى وصلت إلى الفرنج أمداد ضخمة من المال والرجال تحت قيادة « الكندهنرى » Count Henry ، وأخبرهم أن الأمداد واصلة إليهم يتلو بعضها بعضا ، ووصلهم كتاب من البابا يأمرهم بملازمة ماهم بصدده ، ويعلمهم أنه قد أرسل إلى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير إلى نجدتهم

براً وبحراً ، وبعلمهم بوصول الأمداد إليهم ، فازدادوا قوة وطمعاً . ولما تتابعت الأمداد عزموا على لقاء صلاح الدين ؛ ولكنهم ما كادوا يخرجون من خنادقهم ، ويقابلون جيش صلاح الدين وكان على تمام الأهبة للقائهم حتى فضلوا العودة إلى تحصيناتهم ؛ ليعتصموا بها ، ولو أن المعركة دارت ، كما كان المسلمون يريدون ، وكان صلاح الدين بارئا معافى لكانت هى المعركة الفاصلة .

ولقد أظهر أهل « عكا » كثيرا من ضروب الشجاعة والصبر طول مدة الحصار ، ودافعوا عن بلدهم دفاع الأبطال ، وأبادوا ما أعده الفرنج لمهاجمتهم من آلات القتال : عمل الفرنج ثلاثة أبراج من الخشب عالية جداً ، طول كل برج منها فى السماء ستون ذراعاً ، وعملوا كل برج منها خمس طبقات ، كل طبقة مملوءة من المقاتلة ، وأصلحوا الطرق لها ، وقدموها نحو مدينة « عكا » ، وزحفوا بها ، فأشرفت على السور ، وظل القتال بين الصليبيين وأهل « عكا » ثمانية أيام متتابعة ، تقدم بعدها شاب له خبرة بالكيمياء ، وألقى على هذه الأبراج مواد جعلت النار تضطرم فيها ، وكان ذلك يوماً مشهوداً لم ير الناس مثله ، وحمل ذلك الرجل إلى صلاح الدين ، فبذل له مكافأة جسيمة ،

فأبى الرجل أن يأخذ شيئا ، وقال : إنما عملته لله تعالى ، ولا أريد الجزاء إلا منه .

واتخذ الصليبيون « من الآلات العجيبة والصنائع الغريبة ماهال الناظر إليه . . . فأحدثوا آله عظيمة تسمى : دبابة ، يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم ، ملبسة بصفائح الحديد . ولها من تحتها عجل تحرك به من داخل ، وفيها المقاتلة ، حتى ينطح بها السور ، ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد ، وهى تسمى : كبشا ، ينطح بها السور بشدة عظيمة ؛ لأنه يجرها خلق عظيم ، فتهدمه بتكرار نطحها . وآلة أخرى ، وهى قبو فيه رجال السحب كذلك ، إلا أن رأسها محدد على شكل السكة التى يحرث بها ، ورأس البرج مدور ، وهذا يهدم بثقله ، وتلك تهدم بحدتها وثقلها ، وهى تسمى : سنورا . وأعدوا فى البحر بطسة[1] هائلة ، وضعوا فيها برجا بخرطوم إذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات ، ويبقى طريقا إلى المكان الذى ينقلب عليه ، تمشى عليه المقاتلة[2] » .

وكان صلاح الدين ، برغم الحصار ، يرسل الميرة والذخائر

(١) البطسة : السفينة الكبيرة .

(٢) النوادر السلطانية ص ١٢٦ .

إلى « عـكا » بطريق البحر ، وكثيراً ما اعترض الفرنج سبيل سفنه الداخلة إلى الميناء .

وما إن أقبل الربيع سنة ٥٨٦ ﻫ حتى وصلت أمداد إلى الفرنج فى البحر ، وعلى رأس بعضها الملك فيليب ملك فرنسا ، والملك ريتشارد ملك إنجلترا ، ويقول عنه ابن شداد[١] مؤرخ هذه المعركة ومشاهدها : وهو شـديد البأس بينهم ، عظيم الشجاعة ، قوى الهمة ، له وقعات عظيمة ، وله جسارة على الحرب ، وهو دون الفرنسيس عندهم فى الملك والمنزلة ، ولكنه أكثر مالا منه ، وأشهر فى الحرب والشجاعة .

ولما اكتمل جمع الفرنج أقبلوا بكل ما يملكون على مضايقة « عكا » مضايقة أضعفت من فيها ضعفاً عظيما ، وجرى بين صلاح الدين والفرنج معركة عظيمة ، وهو يطوف بين الجند بنفسه ، وعيناه تذرفان الدمع ؛ وكلما نظر إلى « عكا » وما حل بها من البلاء اشتد فى الزحف وحث على القتال . ولكن الضعف كان قد أنهك رجال المدينة ، فجاءت منهم رسالة يقولون فيها : « إنا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم ، ونحن فى الغد إن

(١) النوادر السلطانية ص ١٤٤ .

لم تعملوا معنا شيئا نطلب الأمان ، ونسلم البلد ، ونشترى . قاتلنا».
وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين ، وأنكى فى قلوبهم .

وامام كثرة العدو الساحقة اضطر أهل « عكا » إلى أن يصالحوه على الرغم من إنكار صلاح الدين الذى كان يريد مواصلة القتال ، فسقط البلد فى يد العدو يوم الجمعة ١٧ من جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ هـ ؛ ولم يف ملك الإنجليز بما وعد به أسرى المسلمين ، بل أحضرهم مكبلين بالحبال ، وحمل عليهم هو وجنده حملة الرجل الواحد ، فقتلوهم طعنا بالسيوف .

وأجمع العدو أمره على المسير إلى بيت المقدس ، فجمع السلطان أمراءه يستشيرهم كعادته ، وكان ممن حضر القاضى ابن شداد ، فطلب منه صلاح الدين أن يحث الحاضرين على الجهاد ، فكان مما قاله : « إن النبى لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة على الموت فى لقاء العدو ، ونحن أولى من تأسى به ، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت » ؛ فاستحسن الجماعة ذلك ، ووافقوا عليه . ثم قال لهم صلاح الدين : « اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة بذممكم ، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم ، فإن وليتم بأنفسكم

والعياذ بالله طوى البلاد طى السجل للكتاب ، وكان ذلك فى ذمتكم ؛ فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا ، وأكلتم مال بيت المال ، فالمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم ، والسلام ».

وكان لهذا الحديث وكلام ابن شداد أكبر الأثر فى نفوس المجتمعين ، حتى قال بعضهم : « يا مولانا ، ليس لنا إلا رقابنا ، وهى بين يديك ، والله لا يرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن نموت » ، وأمن الحاضرون على كلامه ، وتأهبوا للقاء العدو ، أشد الناس تلهفا على لقائه .

ولم يلبث العدو بعد أن أقبل إلى بيت المقدس أن اختلف : أيهاجم المدينة أم يرحل عنها ، وقر رأيه على الرحلة .

ثم أخذت الرسل تتردد فى الصلح ، وكان العدو هو الذى بدأ بطلب الحديث فيه ، وكان أول مادار من حديث بين الفريقين أن قال الفرنج : « إنا قد طال بيننا القتال ، وقد قتل من الجانبين الرجال الأبطال ، ونحن إنما جئنا لنصرة إفرنج الساحل ، فاصطلحوا أنتم وهم ، وكل منا يرجع إلى مكانه » . واجتمع ملك الإنجليز بالملك العادل ، وأبدى له الرغبة فى الصلح ؛ فقال له الملك العادل : أنتم تطلبون الصلح ، ولاتذكرون مطلوبكم فيه ، حتى أتوسط بينكم وبين السلطان . وهنا بدأ ريتشارد يذكر

أعلى شروطه للصلح ، مظهرا صرامة وقوة ، إذ قال : « القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا ، وتنصرفوا إلى بلادكم » . ولم تكن هذه القاعدة بطبيعة الحال مما يقبله الملك العادل ، وأخشن له فى الجواب ، وجرت بينهما منافرة ، انصرفا بعدها على غير اتفاق .

وترددت الرسل بين الفريقين ، وتخلل المفاوضات حروب ، استولى فيها صلاح الدين على يافا ، وكان يترقب كل فرصة يحارب فيها العدو ، ولكن الملل كان قد دب إلى عسكر الفريقين ، وكان ملك الإنجليز مصرا على أن تكون له « عسقلان » وأرسل يغرى السلطان بالنزول عنها ، وأنه إن وقع الصلح فى هذه الأيام سار إلى بلاده ، ولايحتاج أن يشتى هاهنا ؛ فأجابه السلطان إجابة المؤمن الواثق بقوله : « أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه ، وأما تشتيه هاهنا فلابد منها ؛ لأنه قد استولى على هذه البلاد ، ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة ، كما تؤخذ أيضاً إذا أقام ، إن شاء الله تعالى . وإذا سهل عليه أن يشتى ها هنا ، ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين ، وهو شاب فى عنفوان شبابه ، ووقت اقتناص لذاته ، أفلا يسهل على أن أشتى وأصيف ، وأنا فى وسط بلادى ، وعندى أولادى وأهلى ، ويأتى إلى ما أريد ، وأنا رجل شيخ

قد كرهت لذات الدنيا ، وشبعت منها ، ورفضتها عنى . والعسكر الذى يكون عندى فى الشتاء غير العسكر الذى يكون عندى فى الصيف ؛ وأنا أعتقد أنى فى أعظم العبادات ، ولا أزال كذلك حتى يعطى الله النصر لمن يشاء » .

ونزل « ريتشارد » على رأى صلاح الدين ، فعقد الصلح على أن يسود السلام ثلاث سنين من تاريخ التوقيع عليه ، وهو يوم الأربعاء ٢٢ من شعبان سنة ٥٨٨ هـ (٢ من سبتمبر ١١٩٢م). وبذلك انتهت الحرب الصليبية التى دارت فى عهد صلاح الدين ، بعد أن فقد فيها عدد ضخم من بنى الإنسان فى الشرق والغرب ، ونشرت لواء الأسى على آلاف الأسر ، وفقدت فيها ألمانيا واحداً من أعظم أباطرتها ، وأضاعت فيها إنجلترا وفرنسا زهرة شباب فرسانها ، ولم يكن لذلك كله من ثمن سوى امتلاك «عكا».

أمضى صلاح الدين معاهدة الصلح مكرها ؛ لما رآه فى الجند من الملل ، وكان يأمل أن يجدد قواه فى هذه المدة من السلم ؛ ليستخلص ما بقى فى يد الفرنج ؛ وبرغم طول الجهاد ومشقات القتال هذه المدة الطويلة فى حرب الفرنج ، وقف صلاح الدين لهم وقفات عنيفة حطمت آمالهم ، فلم يظفروا بغير امتلاك «عكا»، واضطروا إلى النزول على شروطه.

مضى صلاح الدين بعد عقد الصلح إلى بيت المقدس . وأمر بإحكام سوره ، ثم ذهب إلى دمشق ، وفى طريقه إليها مر بالثغور الإسلامية ، وتعهد هذه البلاد ، وأمر بإحكامها .

وأعلن السلطان رغبته فى أداء فريضة الحج ، فألح عليه الأمراء ألا يفعل ، خوفا من غدر الفرنج ؛ فنزل على رغبتهم ، مع شدة شوقه إليه ، وقد أرسل إليه القاضى الفاضل يقول له فى رسالة : « إن الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام ، ولا سلوا عن القدس ، ولا وثق بعهدهم فى الصلح ، فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم ، وافتراق عساكرنا ، وسفر سلاطيننا سفرا مقدرا معلوما مدة الغيبة فيه أن يسروا ليلة ، فيصبحوا القدس على غفلة فيدخلوا إليه ، والعياذ بالله ، ويفرط من يد الإسلام ، ويصير الحج كبيرة من الكبائر التى لا تغتفر ، والعثرات التى لا تقال » .

ولكن صلاح الدين انتهز فرصة عودة الحجاج من مكة ، فخرج لاستقبالهم ، وكان محفلا رهيباً تأثر منه السلطان وبكى ، وعاد فمرض من يومه مرضاً حاداً ، بقى به ثمانية أيام ، وتوفى رحمه الله يوم الأربعاء ٢٧ من صفر سنة ٥٨٩ هـ (٤ من مارس سنة ١١٩٣ م) . وكان عمره سبعة وخمسين عاما .

* * *

توفى صلاح الدين ، وقد حقق الجزء الأكبر من آماله فى طرد الصليبيين من الشام ، اللهم إلا رقعة صغيرة تمتد من «صور» إلى « عكا » ، وكم كان يتمنى أن يلقى بهم جميعاً إلى البحر ، بل إن آماله كانت أوسع من ذلك وأكبر ، قال ابن شداد فى كتابه عن سيرة صلاح الدين : « سرنا . . إلى الساحل طالبي عكا ، وكان الزمان شتاء ، والبحر هائجاً شديداً ، وموجه كالجبال ، كما قال تعالى ، وكنت حديث عهد برؤية البحر ، فعظم أمر البحر عندى ، حتى خيل لى أنى لو قيل لى : إن جزت فى البحر ميلا واحدا ملكتك الدنيا لما كنت أفعل . . . فبينا أنا فى ذلك إذ التفت إلىّ رحمه الله وقال : « أما أحكى لك شيئا فى نفسى ؛ إنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد ، وأوصيت ، وودعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائره ، واتبعتهم فيها ... » فعظم وقع هذا الكلام عندى ، حيث ناقض ما كان خطر لى .

— ٤ —

وإلى جانب عناية صلاح الدين بحرب الفرنج وتطهير الشام منهم ، عنى بأمر الثقافة ونشرها فى ارجاء بلاده .

ففى مصر لم تذع المدارس إلا فى عهد صلاح الدين الذى

استخدم المدارس لنشر المذهب السنى ، وكانت الدراسة العلمية قبله تلقى فى الأزهر وفى الجوامع وبيت الحكمة ، فلما جاء صلاح الدين أنشأ المدارس فى مصر والشام ، وكلما سمع بعالم ممتاز زين له المجىء إلى بلاده ، وحقق له جميع رغباته . وكان يغدق على المدرسين ، ويوسع الرزق على القائمين بشئون الثقافة فى الأمة ، حتى صارت أرزاق أرباب العمائم إقطاعا ورواتبا تتجاوز مائتى ألف دينار ، وربما كانت ثلاثمائة ألف دينار .

ومن المدارس التى أنشأها صلاح الدين بمصر « المدرسة الناصرية » بناها بجوار جامع عمرو بن العاص ، وهى أول مدرسة أنشئت بمصر للسنيين ، وقد تم بناؤها سنة ٥٦٦ هـ ، وكان فى ذلك الحين وزيرا للعاضد الفاطمى ، فكان إنشاؤها من أشد ما عمل على تقويض الدولة الفاطمية ، لأنها أنشئت لفقه الشافعية ، تمهيداً لعودة مصر إلى المذهب السنى .

ومع أن هذه المدرسة كانت الأولى فإنها لم تصل إلى مكانة « المدرسة الصلاحية » التى بناها صلاح الدين بجوار قبة الإمام الشافعى ليدرس فيها مذهبه ، ووكل أمر إنشائها إلى أحدُ رجاله الذين كان يثق بهم ، فنهض ببناء مدرسة لم تر البلاد مثلها من قبل ، فى سعة المساحة وضخامة البناء ، حتى كان يخيل لمن يطوف

بأرجائها أنها بلد مستقل ، ولم يضن عليها صلاح الدين بمال ، ثم وقف عليها ما ينهض بنفقاتها . ولعلها صارت بعد تمام بنائها سنة ٥٧٢ هـ أعظم مدرسة فى العالم الإسلامى ، فكانت بذلك تسمى : تاج المدارس . وقد قام بالتدريس فيها جماعة من أعيان العلماء .

وبنى صلاح الدين أيضا أول مدرسة للمالكية بمصر سنة ٥٦٦ هـ ، وكانت بجوار جامع عمرو بن العاص أيضاً ، وعرفت بالمدرسة القمحية ، لأنه كان من جملة ما وقفه عليها صلاح الدين ضيعة بالفيوم تغل قمحاً كان يوزع على مدرسيها وطلبتها .

كما أنشأ فى القاهرة أول مدرسة لدراسة مذهب أبى حنيفة سنة ٥٧٢ هـ ، عرفت بالمدرسة السيوفية ، لأن سوق السيوفية كان يومئذ عند بابها .

ونسب إلى صلاح الدين المدرسة الصلاحية بدمشق ، وهى التى أنشأها نور الدين بالقرب من البيمارستان النورى[١]، ولعل سبب نسبتها إلى صلاح الدين أنه قام فيها بإصلاحات وزيادات استدعت هذه النسبة . وهذه المدرسة للشافعية ، وله بدمشق مدرسة للمالكية أيضاً[٢] .

(١) الدارس فى تاريخ المدارس ١ : ٣٣١ .
(٢) وفيات الأعيان ٢ : ٤٠٣ .

ولما استعاد صلاح الدين بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ ، نفذ فيه سياسته التى ترمى إلى نشر العلم ، وتزويد شعبه بالثقافة ، فأنشأ به مدرسة للشافعية سنة ٥٨٨ هـ ، كانت من أجل ما بناه من المدارس ، ووكل أمر التدريس فيها إلى القاضى بهاء الدين بن شداد أحد رجالات عصره فى علوم الدين والتاريخ .

— ٥ —

وعنى صلاح الدين كذلك بالحياة الاجتماعية لشعبه ، فأنشأ المستشفيات ببعض كبريات المدن فى مصر والشام .

وإنه مما لاشك فيه أن هذه الحروب التى خاضها صلاح الدين قد استنفذت جزءا كبيرا من دخل البلاد ، ولو أن الحياة كانت مستقرة ، ولم يكن الأعداء قد اغتصبوا البلاد ، واضطر صلاح الدين إلى استردادها ـ لأنفقت هذه الأموال الكثيرة فى نهضة البلاد من الناحية الاجتماعية .

— ٦ —

وكان لصلاح الدين حب للأدب وحدب على أهله ، يغمرهم بعطاياه ، ويستهديهم شعرهم ، ويفدون إليه ينشدونه إنتاجهم ، أو يرسلون إليه بما نظموه ، وكان يستحسن الأشعار الجيدة

ويرددها فى مجالسه ، حتى قيل : إنه كثيرا ما كان ينشد قول الشاعر :

وزارنى طيفُ مَن أَهوى على حذرٍ
مَن الوُشَاةِ وداعى الصُّبحِ قد هَتَفا
فكدتُ أُوقِظُ مَن حَوْلى به فَرَحًا
وكاد يُهْتَكُ سِتْرُ الحبِّ بى شَغَفا
ثمّ انتبهتُ ، وآمالى تُخَيِّلُ لى
نيل المُنَى ، فاستحالت غِبْطَتى أَسَفا[1]

وقيل : إنه كان يعجبه قول ابن المنجم فى خضاب الشيب وهو :

وما خضبَ النّاسُ البياضَ لِقُبْحِهِ
وأقبحُ منه حين يظهرُ ناصِلُه[2]
ولكنّه مات الشَّبابُ ، فسُوِّدَتْ
على الرّسمِ[3] من حُزْنٍ عليه منازله[4]

(١) وفيات الأعيان ٢ : ٤٠٣ . (٢) نصل الشعر : خرج من الخضاب .
(٣) على الرسم : كالعاده والمألوف والمرسوم .
(٤) وفيات الأعيان ٢ : ٤٠٣ .

وذكر العماد الكاتب أنّ السلطان صلاح الدّين فى أوّل ملكه كتب إلى بعض أصحابه بدمشق هذين البيتين :

أيُّهـــا الغائبون عنّا وإن كنـ
ـتُمْ لِقَلْبِى بذكرِكم جِـــيرَانا
إنّنى مُذْ فَقَـــدْتُكم لأَرَاكُم
بِعُيُونِ الضّميرِ عِندِى عِيــانا[1]

وكان يضمّن رسائله الشعر قال العماد : وكثرت كتب صلاح الدين إلى أصدقائه ، مبشرة بطيب أنبائه ، فمنها كتاب ضمنه هذا البيت :

ماكنتُ بالمنظور أقنع منكمُ
ولقــد رضيت اليوم بالمسموعِ[2]

وهذا الشعر الذى استحسنه أو أرسله إلى بعض صحبه يدل على ذوق سليم ؛ لجودة معناه ، واستقامة عبارته .

وكثيراً ما كان يسمر بالحديث عن الشعر والشعراء ، وكان

---

(١) المصدر السابق نفسه .   (٢) الروضتين ١ : ١٧٩ .

مغرما بديوان أسامة بن منقذ، كما روى العماد[1]، وكان له محفوظ كبير من الشعر يردده فى مناسباته. وكان كتاب الحماسة من حفظه. قالوا: لما مات توران شاه أخو صلاح الدين، ووصل الخبر بذلك إلى السلطان، حزن عليه حزنا شديدا، وجعل يكثر إنشاد أبيات المراثى[2]. وكأنه يعبر بهذا الشعر المحفوظ عن أحزانه.

ومما أثر من عطاياه للشعراء ما رواه ابن خلكان من أن بعض الشعراء أنشد صلاح الدين شعرا جاء فيه:

اللهُ أكبرُ نال القوسَ باريها
ورام أسهمَ دينِ اللهِ راميها

فكم لمصرٍ على الأمصارِ من شرفٍ
باليوسُفَيْنِ، فهل أرضٌ تُدانيها

فبابن يَعْقُوبَ هزّتْ جيدَها طَرَباً
وبابن أيُّوبَ هزّتْ عِطْفَها تيها

قل للملوك تَخَلَّى عن ممالكها
فقد أتى آخِذُ الدُّنيا ومُعْطِيها

(1) الروضتين ١ : ٢٤٧.   (2) المرجع السابق ٢ : ١٨.

فأعطاه صلاح الدين ألف دينار [1] .

ومدحه سعادة الأعمى بقصيدة طائية أثابه عليها بألف دينار كذلك [2] .

ومدحه أحمد بن على بن أبى زنبور بقصيدة طويلة وصله عليها بخمسمائة دينار [3] .

وقال العماد فى الخريدة : لما خيم السلطان بظاهر حمص قصده المهذب بن أسعد بقصيدة أولها :

مانام بعـــدَ البين يَسْتَحلى الـكَرَى
إلَّا لِيطرقَه الخيـــالُ إذا سَرَى

فقال القاضى الفاضل لصلاح الدين : هذا الذى يقول : « والشعر ما زال عند الترك متروكا » ؛ فعجل جائزته ، لتكذيب قوله ؛ وتصديق ظنه ؛ فشرفه ، وجمع له بين الخلعة والضيعة . وقد عنى الفاضل ما قاله المهذب فى قصيدة مدح بها الصالح بن رزّيك ، وأولها : « أما كفاك تلافى فى تلافيكا » .

وفيها :

---

(١) وفيات الأعيان ٢ : ٤٠٥ .
(٢) خريدة القصر ١ : ٧٨ .
(٣) بغية الوعاة ص ١٤٨ .

مَنْ أَرْتَجِى يا كريمَ الدّهْرَ ينعَشْنِي
جَدْوَاهُ ، إنْ خابَ سَعْيِي فى رجَائيكا

أأمدَحُ التُّرْكَ أَبْغِي الفَضْلَ عندهُمُ
والشِّعْرُ مازالَ عند التُّرْكِ متروكا(١)

وهنا أقف وقفة قصيرة . أتبين فيها مقدار غرام صلاح الدين بالعروبة ، وأن يظهر بمظهر الملك العربى ، يحافظ على التقاليد المتوارثة عند ملوك العرب ، ويأبى أن يخل بمظهر منها ، فهو يشجع الشعر ، ويثيب الشعراء .

ويذكر العماد الكاتب أن صلاح الدين كان يستهديه شعره ونثره (٢) . مما يدل على غرام بالأدب وحب لأهله . كما كان يعقد المجالس للاستماع إلى ما يقوله الشعراء ، كهذا المجلس الذى عقده بعد أن فتح بيت المقدس ، واستمع فيه إلى ما قاله الشعراء فى هذا الفتح المبين (٣) .

وكان له ذوق ينقد به ما يعرض عليه من الشعر : كتب نشو الدولة أحمد بن نفادة أبياتا يدعو بها العماد إلى دمشق ،

(١) الروضتين ١ : ٢٤٠ .
(٢) المرجع السابق ص ١٤٦ .
(٣) المرجع السابق ٢ : ٩٦ .

« وقد دخل أوان المشمش المعهود ، وهو موسم دمشق المشهود » أولها :

دعا النَّـــاسَ لِلَّذَّاتِ مشمشُ جِلِّقٍ
فقد أسرعوا من كُلِّ غربٍ ومَشْرِقِ

قال العماد : فعرضت أبياته على السلطان ، قال فما قلت في جوابه ؟ فأنشدته .

هلمّوا نُسَابِقْ نحوَ مُشْمُشِ جِلّقِ
وثَمَّ كما نهوَى على الأكْلِ نَلْتَقِي
بدَتْ بينَ أوراقِ الغُصُونِ كأنّها
كُراتُ نُضَارٍ في لُجَيْنٍ مُطَرّقِ(١)

قال : فلما أنشدت السّلطان هذا البيت قال : تشبيه الورق باللّجين غير موافق ؛ فإنّ الورق أخضر : فقلت :

كراتُ نُضَارٍ بالزّمرّدِ مُحْدَقُ(٢)

فغير الشاعر المشبه به ليطابق المشبه .

(١) طرق الحديد : مدده ورققه .
(٢) الروضتين ٢ : ٢١٠ .

صلاح الدين
بين شعراء عصره

كان صلاح الدين أعظم بطل فى الحروب الصليبية ظفر بتقدير الشعراء وإعجابهم ، فأحاطوا به ، ينظمون أسباب مجده ، ويشيدون بوقائعه وجهاده ، ويسجلون كل ما قام به من حركات مباركة فى سبيل مجد الإسلام ؛ فقد تضافر على رسم بطولته عدد كبير من شعراء عصره ، عرفت منهم زهاء خمسين شاعرا ، منهم المصرى ، والشامى ، والعراقى (١) ، يقدمون إليه حيث هو مقيم فى إحدى المدن ، فينشدونه شعرهم ؛ قال العماد فى الخريدة : كنت جالسا بين يدى الملك الناصر صلاح الدين بدمشق فى دار العدل ، فحضر سعادة الضرير ، (وهو من أهل حمص) ، ووقف ينشد هذه القصيدة فى عاشر شعبان ، سنة إحدى وسبعين (وخمسمائة) :

حَيَّتْكَ أَعْطـــافُ القُدُودِ ببانِها
لمّـــا انْثَنَتْ تِيهاً على كُثبانِها

(١) الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر و الشام ص ٤٣٤ ، وارجع الى هذه الصفحة من الكتاب وما يليها لمعرفة أسماء هؤلاء الشعراء ، ومراجع شعرهم ، وصفحات هذه المراجع .

وبعد غزل القصيدة ووصف دمشق قال يصف صلاح الدّين:

سلطانها الملك ابن أيّوبَ الّذى
كفّاه لاتنفكّ عن هَطَلانها

غيث يكرّ من الظُّبَى بصَوَاعِقٍ
ماء الرّدَى يجرِى علَى نيرانِها

بصَوَارِمٍ أجفانُها قِمَمُ العِدَى
لا ما كساها القَيْنُ مِن أجفانِها(١)

ملك إذا جُلِيَتْ عَرَائسُ مُلكِه
رصَعَتْ فريدَ العَدْلِ فى تيجانِها

وإذا جَحَافِلُهُ أثَرْنَ سحائباً
لمعت بروق النّصر فى أحضانها

ويستمر سعادة فى إنشاد قصيدته التى بلغ ما أورده العماد منها أربعة وسبعين بيتاً (٢)

---

(١) القين : الحداد . والأجفان : جمع جفن ، وهو : غمد السيف .
(٢) خريدة القصر ١ : ٤٠٦ وما يليها .

وفى اليوم التّالى قام ، وقد احتفل الحفل ، بحضور أهل الفضل ، فأنشده :

لا يُقْعِدَنّك ما حَلّوا وما عقَدوا
هم الذِّئاب ، وأنت الضَّيغَمُ الأسدُ

و يظلُّ فى إلقاء قصيدته التى بلغت خمسة وستين بيتا ، يختمها بقوله :

فاسلَمْ ، وجَيْشُكَ لا يُـثْنَى له عَــلَمٌ
واسعَدْ ، و بيتُك لا تَهْوِى له عُمُدُ
بحيثُ مِنْ مُخْطَفٍ لَدْنٍ له طُنُبٌ
وحيثُ مِنْ مُرْهَفٍ عَضْبٍ له وَتِدُ[1]
وحيثُ شأنُكَ سَامٍ ماله صَبَبٌ
وحيث شانيك هَاوٍ ماله صُعُدُ[2]

وروى العماد فى الخريدة أيضاً[3] أن البهاء السنجارى (وهو

---

(١) الطنب : حبل طويل يشد به سرادق البيت . والمرهف : السيف . والعضب : القاطع .

(٢) خريدة القصر ١ : ٤١٢ .

(٣) ٢ : ٤٠٢ .

من الموصل) قام فأنشد الملك الناصر قصيدة فى دار العدل بدمشق سنة إحدى وسبعين (وخمسمائة) فى شعبان منها :

جَرَّدْتَ من فَتَكَاتِ لَحْظِكَ مُرْهَفا
وهزَزتَ مِنْ لين القَوَامِ مُثَقَّفَا(1)

ومنها فى وصف صلاح الدّين :

وجَرَى بىَ الأَمَلُ الطَّمُوح ، فأمَّ بى
سُلطانَ أرضِ اللهِ طُرًّا يُوسُفَا
النّاهبَ الأرواحِ فى طلَبِ العُلاَ
والواهبَ الآجالِ فى حسن الوفا
مولًى له فى كلِّ يومٍ يُجْتَلَى
مُلْكٌ يُجَدَّدُ ، أو مَلِيكٌ يُصْطَفَى
مَلِكٌ ملائكةُ السّماء جُنُودُهُ
والسَّعْدُ عندَ رِكابِه إن أوجَفَا(2)

---

(1) المثقف : الرمح .
(2) أوجف الفرس : جعله يعدو عدوا سريعا .

والله ناصره على أعدائه

كتب القضاء له بذلك أحرفا

وحينا يرد الشعراء إليه ، وهو فى مخيمه ؛ فهذا مهذب الدين عبد الله بن أسعد الموصلى يفد عليه ، وهو مخيم بالعاصى ، عندما وصل إلى حمص ، وينشده فى مدحه . ومما قال فيه :

وما خَضَعَ الفَرَنْجُ لديكَ حتّى
رأَوْا مالا يُطَاقُ من الكِفَاحِ

وما سأَلوكَ عَقْدَ الصُّلحِ ودًّا
ولكن خوف مُعْلِمَةٍ رَدَاح[1]

مَلأتَ بلادَهم سَهلاً وحَزْنًا
أسودا تحتَ غاباتِ الرِّماحِ[2]

وقد يرسلون إليه بقصائدهم من غير أن ينتقلوا إليه ؛ فقد

(١) المعلمة : الكتيبة التى تعلن عن نفسها فى الحرب . والرداح : الثقيلة الجرارة .

(٢) الروضتين ٢ : ١٦ و ١٧ .

ارسل إليه سبط بن التعاويذي بقصائده من بغداد[1] ، وارسل إليه من مصر أبو علي الحسن بن علي العراقي الجويني قصيدة منها :

يامليكا أضْحَى الزّمانُ يُنَاجيـ ـهِ بلفظ المذَلّلِ المسكين

قَذَفَتْ أهلَها الحُصُونُ إلى بأ سِكَ ، حتّى عوَّضْتَهُمْ بالسُّجُونِ

وأراهم ربُّ السّماء بأسْيَا فِكَ مالم يَجُلْ لهم في ظُنُونِ

يامليكا يَلْقَى الحروبَ بحول اللـ ـهِ مستَعْصِماً وصدق اليقين

إنّ هذا الفتْحَ المُبينَ شِفاءٌ لصدورٍ ، وقرّةٌ للعيون[2]

وكان يتولى عرض هذه القصائد عليه عند ورودها أحد المقربين إليه .

---

(١) راجع ديوان سبط بن التعاويذي ص ١٨ و ٢٢ و ١٠٨ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٤٠٣ .

(٢) الروضتين ٢ : ٩ .

وقد بقى لنا من الشعر الذى قيل فى صلاح الدين مقدار ضخم ، وليس ذلك كل ما قيل فيه ، ولكن فقد منه قدر كبير ، نتبينه إذا علمنا أن ابن الساعاتى أنشأ فى صلاح الدين قصائد طويلة كثيرة لم يبق من معظمها سوى غزلها ، والبيت الذى تخلص فيه من الغزل إلى المدح[1] ، وأن القصيدة الطويلة قد يبقى منها بيت أو بيتان ، فهذا على بن المبارك يمدح صلاح الدين بقصيدة أورد منها معجم الأدباء مطلعها ، وهو :

ألا حيّيــــا بالرّقمتين المعالمــــا
وإن كنّ قد أصبحْن دُرْسًا طواسما[2]

وأورد من مديحها قوله :

إذا كانت الأعـــداء فعلا مضـارعا
أصار مواضيــه الحروف الجوازما[3]

وهذه قصيدة طويلة نسبها ابن خلكان إلى ابن الشحنة

---

(١) راجع ديوان ابن الساعاتى ١ : ٦١ و ٦٢ و ٦٣ و ٦٦ و ٦٧ و ٦٨ و ٧٠ و ٧١ و ٧٣ و ٧٥ و ٧٦ و ٧٧ .

(٢) الرقمتين : مكان . والرقمة : الروضة أو جانب الوادى . والدرس : جمع دارس ، وهو الممحو . والطواسم : جمع طاسم وهو المنطمس .

(٣) معجم الأدباء ١٤ : ١١٠ والمواضى : السيوف القاطعة .

الموصلي . وذكر ان عدة ابياتها مائة وثلاثة عشر بيتا . ومع ذلك لم يبق لنا من هذه القصيدة سوى مطلعها ، وهو :

سَـــــلَامُ مَشُوقٍ قد بَرَاهُ التّشَوّقُ
على جِـــيرَةِ الحَيِّ الّذين تَفَرّقُوا

وسوى بيتين كانا سائرين وقت إنشائهما ، وهما :

وَإِنِّى امرُؤٌ أَحْبَبتُكُمْ لمكارِمٍ
سَمِعْتُ بهَا ، والأُذْنُ كالعَيْنِ تَعْشَقُ
وقالَتْ لىَ الآمالُ : إن كُنْتَ لاحقاً
بأبنَـــاءِ أَيُّوبٍ فأنتَ الموفّقُ

وقد يكون للقصيدة حظ أفضل ، فيبقى خمسةوعشرون بيتاً ، من مائة واثنين وخمسين بيتا ، كالقدسية الكبرى للحكيم أبي الفضل ، وهي التي أولها :

تَصَاريفُ دَهْرٍ أعرَبَتْ لمن اهتَدَى
وبَسْطَةُ أمْرٍ أغْرَبَتْ مَن تمرّدَا

لِسُرْعَةِ فَتْحِ القُدْسِ سِرٌّ مُغَيَّبٌ
وفى صَرْعَةِ الإِفْرَنْجِ مُعْتَبَرٌ[1] بدا

ويذكر التاريخ أن شعراء مدحوه من غير أن يروى من مدحهم شيئاً [2] .

وبعد فقد سجل الشعر كثيراً من أحوال صلاح الدين ، اشترك فى الحديث عنها معظم شعراء عصره ؛ وهانحن أولاء نعرض بعض ما ورد من هذا الشعر .

— ١ —

سجل الشعر خطى صلاح الدين منذ وقت مبكر ، وربما كان من اسباب ذلك أنه كان رجلا مرموقا منذ الحداثة ، وأنه كان يؤدى واجبه فيما يوكل إليه من الأمور كما ينبغى أن يكون الأداء ، وأنه كان ذا خلق نبيل يجذب الناس إليه ، ويدفعهم إلى حبه وتقديره . وقد حفظ التاريخ شعرا قيل فيه عندما ولى شحنة دمشق [3] ، فقال العرقلة يهنئه :

---

(١) المعتبر : العظة .
(٢) الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٤٣٨ .
(٣) الشحنة بالكسر : من فيه الكفاية لضبط البلد من جهة السلطان وهو يشبه مدير الأمن العام .

لُصُوصَ الشّام ، توبوا من ذُنُوبٍ
تـكفّرها العقوبةُ والصِّفـــــادُ[1]
أئِن كانَ الفسادُ لـكم صـــلاحا
فولاىَ الصَّــلاحُ لـكُم فسَادُ

وهنّأه بقصيدة أخرى يقول فيها :

رويدَكُمُ يالُصُوصَ الشّــــآ
مِ ، إنّى لـكُمْ ناصِحٌ فى مقالى
وإيّاكُمُ وسَمِىَّ النَّبِـــ
ـىِّ : يوسُفَ ربَّ الحِجَى والجمالِ
فَذَاكَ مُقَطِّعُ أيْدِى النِّسَـــا
ء ، وهذا مقطِّعُ أيدِى الرّجالِ

وهذا الشعر الذى يهنىء صلاح الدين بمنصبه الجديد ينذر أخطر المتمردين على الأمن ، ويقر لصلاح الدين بالمقدرة على الضرب على أيدى أولئك المفسدين ، وبالحزم فى معاملتهم ، وبالعقل المؤدى إلى حسن تصريف الأمور

(١) الصفاد : ما يوثق به الأسير : القيد .

كما رفع العَرْقَلة يده إلى السماء يطلب من الله أن يلي صلاح الدين أمر مصر عندما جاء إليها مع عمه أسد الدين شيركوه ، فيقول :

رَبِّ كما مَلَّكْتَهـــا يُوسُفَ الصِّـ
دِّيقَ من أولاد يعقوبِ
يملكُها فى عصرِنا يوسُفَ الصَّـ
ـادقُ من أولاد أيُّوبِ
من لم يَزَلْ ضرّابَ هام العــدى
حقّـــا ، وضَرّاب العراقيبِ

فلما عاد إلى دمشق حثّه العَرْقَلَةُ على العود إليها ، فقال :

إلَى كَمْ ذَا التَّوَنِي فى دَمَشْقٍ
وقد جاءتكُمُ مصرٌ تَهَـــادَى
عَرُوسٌ بعلُهَـــا أسدٌ هِزَبْرٌ
يصيدُ المعتدِين ، ولن يُصَادَا

ويشتدّ أمل الشعراء فى أن يستقر صلاح الدين بمصر ، ويجتمع فيها شمله بأبيه وإخوته ؛ فيقول العماد الكاتب لنجم الدين أيوب والد صلاح الدين :

أخوك وابنك صدقاً منهمـــا اعتصما
بالله ، والنّصرُ وعدٌ غيرُ مكذوبِ
هما همامان في يومَيْ وغىً وقوَى
تعوّدوا ضربَ هامٍ أو عراقيبِ
غدًا يَشُبّان في الكفّارِ نار وغىً
بلفحـــــها يصبح الشّبّانُ كالشِّيبِ
بملك مصرٍ ونصرِ المؤمنين غـــداً
تحظَى النُّفوسُ بتأنيسٍ وتطييبِ
ويستقرّ بمصر يوسفُ ، وبه
تَقَرّ بعد التّنـــائي عين يعقوب
ويلتقي يوسفُ فيهـــــا بإخوته
واللهُ يجمعهم من غير تثريب[1]

ولست أدرى أهو صوت القدر الذى جعل الشعر يؤمل في أن يستقر صلاح الدين بمصر دون عمه شيركوه ، أم أن الأمر لا يعدو أن يكون الشعر يتحدث إلى والد الصلاح . ولعله بذلك

(١) التثريب : اللوم والتعيير بالذنب .

كان يسجل أمنية تدور فى نفس نجم الدين ، وربما لم تكن هذه الأمنية على الوجه الذى انتهت إليه .

أما الأحداث التى صاحبت قدومه إلى مصر ، وعودته منها ، ولقاءه للفرنج ، وهزيمتهم أمامه ، وحصاره فى الإسكندرية ، وخداع شاور له فيسجلها العماد فى قوله :

لا ذَبالنيــــل شاورٌ مثل فرعو
نَ ، فذلّ اللاّجِى ، وعزّ العُبُورُ
شاركَ المشركين نعيا ، وقِدْما
شاركتهـــا قُرَيْظَةٌ والنّضِيرُ
والّذى يدّعِى الإمامة بالقـــا
هِرَةِ ارتاعَ أنّه مقهـــور
وبنو الهمفرى هانوا ، ففرّوا
ومن الأُسْدِ كلُّ كلبٍ فرُورُ
إنّما كانَ للكلابِ عُوَاءٌ
حيثُما كانَ للأسود زئـــيرُ

وفيليبٌ عنـد الفِرَارِ سليبٌ

فهو بالرُّعْبِ مطلَقٌ مأسورُ

وحميتَ الإسكندريّة عنهم

ورحى مَنْ بهـا عليهم تدورُ

حاصروها ، وما الّذى بان من ذَبّـ

ـكَ عنهـــا وحفظها محصورُ

كحصار الأحزابِ طيبـــةَ قدما

ونبيُّ الهُدَى بهـــا منصورُ

فاشكر اللهَ حيث أولاكَ نصراً

فهو نِعْمَ المولى ونعم النّصيرُ

والشعر يصور التيارات التى كانت تعترض صلاح الدين وتقف فى وجهه : من وزير مصرى لا يجد غضاضة فى الاستعانة بالفرنج والاستنصار بهم إذا دعا الأمر ، ومن إفرنج طامحين إلى ملك مصر ، ينتهزون كل فرصة للوصول إلى ذلك الهدف ، ومن خلافة تخاف الوزير والفرنج وصلاح الدين جميعاً .

فلما تم لصلاح الدين الانتصار على شاور والفرنج أرسل إليه اسامة بن منقذ قصيدة أولها : « سلم على مصر ، لا ربع بذى سلم » ، وفيها يقول :

النّـاصرُ الملكُ المُوفِى بذمّته
ومَنْ نَدَى كفِّهِ يُغْنِى عن الدِّيمِ [1]
ومَنْ إذا جرّدَ البيضَ الصّوارمَ فى الـ
هيجاءِ أغمدها فى البَيْضِ والقِمَمِ
وردّ طاغيةَ الإفرنج يحسَبُ ما
رجاه من مُلْكِ مِصْرٍ كانَ فى الحُلُمِ
ولّى ، وراحتُه صِفْرٌ [2] وقد مُلِئَتْ
بَعْدَ الطّماعةِ من يأسٍ ومن نَدَمِ
يُصَعِّدُون على مافاتَهم نَفَسًا
لولا فحَ البَحْرَ أضحى الموجُ كالحُمَمِ [3]

(١) الديم : جمع ديمة ، وهى المطر يدوم فى سكون .
(٢) صفر : خالية .
(٣) صعد نفسه : تنفس تنفسا ممدوداً . والحمم : جمع حممة ، كرطبة ، وهى ما أحرق من خشب ونحوه .

وفى السَّلامةِ ، لولا جهلهمُ ، ظَفَرٌ
لِمَنْ أراد نِزَالَ الأُسْدِ فى الأُجُمُ (١)

وهو هنا يصور ما أصاب الفرنج من خيبة أمل عندما أخفقوا فى الاستيلاء على مصر ، وتبددت آمالهم وصارت أحلاما ، ويصور الشعر يأسهم وندمهم والزفرات الحرى يصعدونها حزنا وأسى .

كما حدثه أسامة فى قصيدة أخرى عن انتصاره على شاور الذى كاد يضع البلاد بين أيدى الفرنج تحقيقا لأطماعه ، فقال له :

أقمتَ عمودَ الدّين حين أماله
لطاغى الفَرَنجِ الغُتْمِ طاغى بنى سعد (٢)
أفدتَ بما قدّمتَ مُلْـكا مخـلّدا
وذِكْرًا مَدَى الأيّام يُقْرَنُ بالحمد
وذِكرُكَ فى الآفاقِ يَسْرِى كأنّه الصّبـ
ـباحُ له نَشْرُ الأُلُوَّةِ والنّدِّ (٣)

---

(١) الأجم : جمع أجمة ، وهى مسكن الأسد.
(٢) الغتم : جمع أغتم ، وهو الذى لا يفصح شيئا . وطاغى بنى سعد هو : شاور.
(٣) الألوة والند : عودان يتبخر بهما .

والبيت الأخير يدل على ما كان لهذه الأعمال التى قام بها صلاح الدين من ذكر مدو فى أرجاء العالم الإسلامى يومئذ .

وقد أحسّ الشّعراء بأن فى انتصار صلاح الدين على شاور بناء ملك دائم فى مصر ، ولم يعبأ الشعر بالخليفة الفاطمى وبقائه أو موته ، مما ينبىء بضآلة شأنه ، وضعف سلطانه ؛ وذلك حق لا مرية فيه .

فلما ولى صلاح الدين وزارة العاضد هنأه عمارة اليمنى تهنئة يبدو فيها أمل الشاعر فى أن يظل مبقيا على الخلافة الفاطمية ، فقد عدّد مآثره فى نصرة الخليفة الفاطمى ، ودعاه بابن النبى ، وصور ما كانت البلاد تعانيه من الفرنج ، وذلك إذ يقول مخاطبا صلاح الدين :

لكَ الحسَبُ الباقى على عَقِبِ الدَّهرِ
بل الشَّرفُ الرَّاقى إلى قِمَّةِ النَّسْرِ[1]

كذا فليكن سعىُ الملوكِ إذا سعت
بها الهممُ العَلْيا إلى شرف الذِّكرِ

(١) النسر : كوكب فى السماء .

نهضتمُ بأعبـــاء الوزارة نهضـــةً
أَقَلْتمُ بهـــا الأَقْدَامَ من زلَّةِ العَثْرِ
كَشَفْتمُ عن الإقليم غمّتـــه ، كما
كَسَفْتمُ بأنوار الغِنَى ظُلْمَـــةَ الفقر
حميتمُ من الإفرَنجِ سِرْبَ خـلافة
جريتمُ لها مجرَى الأمانِ من الذُّعْر
ولمـا استغـاث ابن النّبيّ بنصركم
ودائرة الأنصار أضيق من شِـــبْر
جلبتم إليـــه النّصر أوسا وخزرجا
وما اشتُقّتِ الأنصار إلاّ من النّصْر
كتائب في جيرون[1] منها أواخرٌ
وأوّلهـــا بالنّيلِ من شاطِئَيْ مصر
طلعتمُ فأطلعتمُ كواكب نُصرةٍ
أضاءت ، وكان الدّينُ ليلاً بلا فَجْرِ

---

(١) جيرون : دمشق .

أخذتُم على الإفْرَنج كلَّ ثنيَّـــةٍ
وقلتُم لأيدى الخيل : مرّى على مرّى[1]

لئِنْ نصبوا فى البرِّ جسرا فإنّـكم
عبرتُم ببحرٍ من حديدٍ على الجسر

طريقٌ تقارعتُم عليها مع العِدى
ففزتُم بها ، والصَّخْرُ يُقْرَعُ بالصَّخْرِ

يدٌ لايقومُ المسلمون بشكرِها
لـكم آلَ أيُّوبٍ إلى آخرِ الدَّهْرِ

بـكُمُ أمَّنَ الرَّحمنُ أعظُمَ يثربٍ
وأمَّـن أركان الثَّنِيّـةِ والحِجْر

ولو رجعتْ مصرٌ إلى الـكُفْرِ لانطوَى
بِساطُ الهُدَى من ساحهِ البرِّ والبَحْرِ

وهذه القصيدة ناطقة بأشياء كثيرة تعدُّ صدًى للأحداث التاريخية فى تلك الحقبة من الزمان ؛ فقد صورت هذا القلق

---

(١) هو ملك بيت المقدس Amary

والاضطراب الذى كان يسود مصر يومئذ من جراء أطماع الوزراء ، والحروب الدائرة على أرضها نتيجة لهذه الأطماع ، فلم يكن ثمة استقرار فى مصر أو أمن يعيد الطمأنينة إلى النفوس ، وقد أجاد الشاعر فى تصوير ذلك بالغمة ترين على القلوب ، وتجعل جو الإقليم المصرى قلقا مضطربا .

وصورت هذا الخوف الذى ملأ على الخليفة قلبه ، حتى جاء صلاح الدين فبدل هذا الخوف أمنا . وصورت ضعف أنصار الخليفة فى مصر ، ضعفا دفعه إلى التماس النصر من جيش غير جيشه ، وإنسان لايدين بعقيدته ، وهو نورالدين محمود ، كما صورت ضخامة جيش صلاح الدين ، فقد جعل آخره فى دمشق وأوله بشواطئ النيل ، وصورت هذا النزاع والتسابق على أخذ مصر وامتلاكها بين نور الدين محمود والفرنج ، وفوز صلاح الدين بهذا الجزء العزيز من الوطن الإسلامى :

طريقٌ تقــارعتُم عليها مع العِدى
ففزتُم بهـا ، والصَّخْرُ يُقْرَعُ بالصَّخْر

وصورت مكانة مصر فى العالم الإسلامى يومئذ ، ونظرة الفرنج إليها ، وإيمانهم بأنهم إذا ملكوها استطاعوا أن يضعوا

أيديهم على باقى أجزاء العالم الإسلامى ؛ لأنها منه مكان القلب النابض ، فلم يكن عمارة مغاليا يوم قال :

ولو رجعتْ مصرُ إلى الكُفْرِ لانطوَى
بِساطُ الهُدَى من ساحةِ البرِّ والبَحْر

وحين رأى فى أمن مصر أمنا لمكة والمدينة .

والقصيدة بعدئذ تهنئ بالوزارة ، وتتحدث عن ابن النبى ، وكأنه حين وصف الخليفة بذلك كان يريد من صلاح الدين ألا يسير إلى أبعد من خطوة الوزارة ، وأن يبقى الخليفة متربعا على عرشه ؛ لأن هوى عمارة كان مع الدولة الفاطمية .

وقد كان أسلوب عمارة فى قصيدته قويا ، وإن كنا نأخذ عليه كسف أنوار الغنى ظلمة الفقر ؛ لأن المعهود أن تكسف الظلمة النور ، لا أن يكسف النور الظلام .

وكان لوزارة صلاح الدين أولا ، ثم سقوط الخلافة الفاطمية وخلوص مصر لصلاح الدين ، واسم يوسف ـ كان لذلك كله أثره فى الشعر ؛ كتب العماد الكاتب يهنئه :

أهنّى الملكَ النّـــــا ـصرَ بالمُلكِ وبالنّصر
وما مهّد من بُنْيا نِ دين الحقِّ فى مِصْرِ

وما أســداه من برٍّ   بلا عدٍّ ، ولا حصر
وما أحيـاه من عدلٍ   وما خفَّفَ من إصْرٍ[1]
وإعـــلاءِ سَنَا الشُّـــنّةِ في بحبوحةِ القَصْرِ
قد استولى على مصرٍ   بحقٍّ يوسفُ العصر
وأحيـا سُنَّــةَ الإحسا   نِ في البدو ، وفى الحضر

فلما قطع صلاح الدين الخطبة للعاضد الفاطمى ، وخطب للمستضىء العباسى ، نظم العماد قصيدة مشتملة على الخطبة بمصر ، أولها :

قد خطبنـا للمستضىء بمصر
نائب المصطفى إمام العصرِ
وخذلنـا لنصرة العضد[2] العــا
ضد ، والقـاصر الّذى بالقصرِ
وأشعنـا بهـا شعـار بنى العبّـ
ـاس ، فاستبشرت وجوهُ النَّصْرِ

---

(١) الاصر : الثقل .   (٢) أراد بالعضد : عضد الدين بن رئيس الرؤساء وزير بغداد . قال العماد : ونصرة وزير الخلافة كنصرته .

وتركنـا الدّعىّ يدعى ثبورا[1]

وهو بالذّلّ تحت حجرٍ وحصرِ

وتبـاهت منـابر الدّين بالخطـ

ـبةِ للهـاشمىِّ فى أرضِ مصرِ

ولدينـا تضـاعفت نعم اللّـ

ـهِ ، وجاّت عن كلِّ عدٍّ وحَصْرِ

فاغتدى الدّينُ ثابتَالرّكنِفى مص

ـرَ محوطَ الحِمَى مَصُونَ الثّغْرِ

عرف الحقّ أهلُ مصرَ ، وكانوا

قبلَهِ بين منـكِرٍ ومُقِرِّ

والّذى يدّعى الإمامةَ بالقـا

هرةِ انحطّ فى حضيضِ القهرِ

خانه الدّهرُ فى منـاه ، ولا يطـ

ـمعُ ذو اللُّبِّ فى وفاءِ الدَّهرِ

(١) الثبور : الهلاك والخسران .

ما يُقـــامُ الإمامُ إلّا بحقٍّ
ما تُحـــازُ الحسنـاءُ إلّا بمهرِ

خلفـاءُ الهُدَى سراةُ بنى العبـ
ـاسِ ، والطّيّبونَ أهلُ الطّهر

بهم الدّينُ ظـافرٌ مستقيمٌ
ظـــاهرٌ قوّةً قرىَّ الظّهْر

كشموس الضّحى ، كمثل بدور التّـ
ـمِّ ، كالشّهْبِ ، كالنّجوم الزُّهْرِ

قد بلغنـــا بالصّبر كلَّ مرادٍ
وبلوغُ المرادِ عُقْبَى الصَّـبْرِ

دام نصرُ الهُدَى بملك بنى العَبَّـ
ـاسِ ، حتّى يقومَ يومُ الحشر

والقصيدة مفصحة عن شماتة بالخليفة الفاطمى ، وإن كان الشاعر قد لمس كبد الحقيقة عندما جعل الخليفة الفاطمى قاصرا تحت الحجر والحصر ، وهو لذلك مستضعف ذليل .

والقصيدة مفصحة أيضاً عما كان للخلافة العباسية يومئذ من سلطة روحية على النفوس . برغم ما أصابها من تدهور سياسى ، وضعف نفوذ وسلطان ؛ فأنت ترى الشاعر يتحدث عن المنابر ومباهاتها بالخطبة للهاشمى، ويعدّ عودة الخطبة إليه تثبيتا لأركان الدين فى مصر ، واعترافا من أهل مصر بالحق ، ثم يصف خلفاء بنى العباس بأنهم خلفاء الهدى وأنهم الطيّبون أهل الطهر، وأنّ الدين ظافر قوىّ بهم ، وهم كالشموس ، والبدور ، والنجوم ، والسحب ، ثم يدعو أن يظلوا خلفاء إلى يوم الحشر .

أليس فى ذلك كله مايوحى إلينا بأن وهن السلطان السياسى للخلافة العباسية لم يوهن سلطانها الروحى على النفوس ؟ أو ليس فى ذلك دليل على أن النفوس جميعا كانت تصبو إلى وحدة تجمع القلوب وتؤلف الشتات ؟

وفى القصيدة إشارة أرجو أن أنبه إليها، تلك هى أنّه نبّه إلى الصّبر الذى يلغ بهم إلى مايريدونه من الآمال، وأغلب الظن أنه يشير بذلك إلى ما كان من رغبة جامحة فى تغيير الخطبة ، ولكن صلاح الدين تريث وانتظر ، حتى مهد للأمر ، ثم قطع الخطبة عن الخليفة الفاطمى .

فلما مات العاضد الخليفة الفاطمى قال العماد أيضا :

توفّى العاضدُ الدّعىُّ ، فَمَا
يفتحُ ذو بِدعةٍ بمصرَ فَمَا
وعصرُ فرعونها انقضى وغدا
يوسُفُها فى الأمورِ مُحْتَكِما
وانطفأت جمرةُ الغواةِ ، وقد
باخ من الشّركِ كلُّ ما اضطرما[1]
وصار شملُ الصّلاحِ ملتئماً
بها ، وعِقْدُ السّدادِ منتظما
لما غدَا معلنا شعارَ بنى الـ
ـعبّاسِ حقّا ، والباطلُ اكتتما
وبات داعى التّوحيدِ منتصرا
ومِن دُعَاةِ الإشراكِ منتقما
وعاد بالمستضىء ممتهدا
بناء حقٍّ قد كان منهدما

(١) باخ : سكن وهدأ . واضطرم : التهب .

واعتلت الدَّولةُ الّتى اضطهدت

وانتصر الدّين بعدما اهتضما

واهتزَّ عِطْفُ الإسلامِ من جزل

وافترّ ثغرُ الإيمـانِ ، وابتسما

وروح هذه القصيدة كروح سابقتها التى وصفناها .

أما يوسف ، وهو اسم صلاح الدين ، فقد دعا إلى الأذهان اسم يوسف الصديق النبيّ الذى وزر لأحد الفراعنة ، وتزلت قصته فى القرآن الكريم .

وكان من وجوه الشبه بينهما أن قدم إلى يوسف صلاح الدين وهو بمصر والده وإخوته ، كما قدم على يوسف الصديق والده وإخوته كذلك ، ومما قيل فى هذا الشبه أبيات لعمارة يقول فيها :

صحَّتْ به مصرُ ، وكانت قبلَه

تشكو سَقَامًا لم يُعَنْ بطبيبِ

عجبـًا لمعجزةٍ أتت فى عصرِه

والدَّهرُ ولّادٌ لِكُلِّ عجيب .

ردَّ الإلهُ به قضيّـةَ يوسُفٍ
نَسَقًا على ضَرْبٍ من التّقريبِ

جاءتهُ إخوتهُ ووالدُهُ إلى
مصرٍ على التّدريجِ والتّرتيبِ

فاسعَدْ بأكرمِ قادمٍ ، وبدَولة
قد ساعدتك رياحُهـا بهبوبِ

وقال فى هذا المعنى الحكيم عبدالمنعم الجليانىّ :

فى مشرقِ المجدِ نجمُ الدّين مطلعه
وكلّ أبنائه شُهْبٌ ، فلا أَفَلُوا[1]

جاءوا كيعقوبَ والأسباطِ، إذوردوا
على العزيزِ من ارضِ الشّامِ واشتَمَلُوا

لكنَّ يوسُفَ هـذا جاء إخوتُهُ
ولم يكن بينهم نَزْغٌ ، ولا زَمَلُ

(١) أفل النجم : غرب .

ومُلِّكوا أرضَ مصْرٍ فى سماحَتِهِ

ومثلُهـا لرجالٍ مِثْلِهِم نُزُلُ[1]

وعمارة قد جعل القصة تعود على ضرب من التقريب ، أما الجليانى فقد أوضح الفرق بين القصتين ، إذ أقبل إخوة صلاح الدين ولم يكن بينهم وبين أخيهم من قبل غلٌّ ولا حقد ، على العكس من إخوة يوسف الصدّيق .

ووازن عمارة مرّة أخرى بين اليوسفين فقال :

ياشبيهَ الصِّدِّيق عَدْلًا وحُسْنـاً

وسَمِيًّا حكاه معنًى ومَغْنَى

هـذه مصرُ يوسفٍ حلَّ فيها

يوسفٌ مالكاً ، وما حلّ سجناً

ولكنّا نأخذ على عمارة أنه يشبه صلاح الدين بيوسف ابن يعقوب فى العدل والحسن ، وليس العدل من بين الصفات التى شهر بها يوسف الصدّيق ، ولكنه شهر بحُسن تدبير المال حتى أنقذ مصر من سنيها المجدبة العجاف ؛ وليس الحسن

(١) النزل : المنزل .

مما يمدح به أبطال الرجال ؛ كما مدحه بأنه يشبهه فى الاسم ، وليس ذلك مما يوجب المدح والثناء ، ولا فى أنه أشبهه فى أنه مقيم بمصر .

كما دفع الاسم المتحد بين ابن أيوب وابن يعقوب ـ العماد إلى الخطأ فى زعمه أن مصر قد صبت إلى عصر يوسف، إذ قال :

ولما صَبَتْ مِصْرٌ إلى حُكْمِ يوسُفٍ
أعاد إليها اللهُ يوسُفَ والعصْرَا
فأجرى بها مِن راحتيه بجوده
بحارا ، فسماها الورى أنملا عشرا

فلم يردّ الله إلى مصر عصر يوسف المجدب الذى كان كثير التقدير والتقتير ، لا عصراً فاض فيه الجود الذى سماه العماد بحارا .

فإذا مضى صلاح الدين إلى الشام يريد أن يوحده مع مصر ، بعد وفاة نور الدين محمود ؛ لكى يتهيأ له استرداد فلسطين المغتصبة ، فقد أوقع الله فى قلبه بعد أن صفت له مصر أنّ الله أراد بذلك أن يهيء له فتح السّاحل ، كما تحدّث بذلك صلاح الدين ، وأخذ دمشق — قال فى ذلك وحيش الأسدى قصيدة أولها :

قد جاءك النّصرُ والتّوفيقُ، فاصطحبا
فكُنْ لأضعافِ هذا النّصرِ مرتقِبا
لله أنتَ، صلاحَ الدّين، مِن أسَدٍ
أدنَى فريستهِ الأيّامُ إن وَثبا
رأيتَ جِلّقَ[1] ثغرا لا نظير له
فجئتَها عامرا منها الّذى خرَبا
نادتك بالذُّلِّ لمّا قلَّ ناصرها
وأزمعَ الخلقُ مِن أوطانِها هرَبا
أحييتَها مثلَ ما أحييْتَ مصرَ، فقد
أعَدْتَ مِنْ عَدْلِها ما كانَ قد ذَهَبا
هذا الّذى نَصرَ الإسلامَ، فاتَّضَحَتْ
سَبيلُه، وأهانَ الكُفْرَ والصُّلُبا
ويومَ شاوِرَ، والإيمانُ قد هُزِمَتْ
جيوشُهُ، كان فيه الجحفَلَ اللّجِبا

(١) جلق : دمشق .

أبتْ له الضَّيمَ نفْسٌ حُرَّةٌ ويَدٌ
فعّالةٌ ، وفؤادٌ قطُّ ما وَجَبا[1]
يستكثر المدح يُتْلَى فى مكارمِهِ
زُهْدًا ، و يستصغر الدُّنيا إذَا وهبَا
ويومُ دمياطَ والإسكندريّة قد
أصَارَهُ مثلاً فى الأرضِ قد ضُرِبَا
والشّامُ لو لم يدارِكْ أهلَهُ اندرسَتْ
آثارُهُ ، وعَفَتْ آياته حِقَبَا[2]

ونظرة إلى البيت الرابع من هذه القصيدة ربما دلت على ما ساد دمشق من اضطراب بعد موت نور الدين محمود .

ولقد جاء صلاح الدين إلى دمشق ومعه تاريخ مجيد تتفتح له قلوب الرعية فى دمشق ، فقد انتصر على الفرنج ، وحال بينهم و بين استيلائهم على مصر ، كما ردهم عن دمياط عندما هاجموها من البحر ، وانتصر على شاور ، واستطاع أن يفك الحصار

(١) وجب القلب وجيبا : خفق .
(٢) عفت : اندرست وانمحت . وآياته : علاماته . وحقبا : سنين .

الذى فرض عليه بالإسكندرية ؛ وأقام العدل فى مصر ، فكان ذلك كله من الأسباب التى جعلت الرعية فى دمشق يفرحون بمقدمه ، وسجل الشعر نبضات قلوبهم كما رأينا .

ويرى نشو الدولة أبو الفضل بعد أن ملك صلاح الدين دمشق أن الله يعدّه لأمر عظيم ، فقد جعله ميمون الطالع ، « وقابله الإقبال والفتحُ والنصرُ » .

وذلك إذ يقول :

أتى بعدَمَا نادَتْ دمشقُ لبُعـدِه
إلى ربِّهـا : تاللهِ مسّنِيَ الضُّرُّ

فللّهِ حمــــدٌ لايزالُ مجـدَّدًا
على ماحبا من فضله ، ولهالشُّكْرُ

أتاحَ لنـا من بعدِ يأسٍ مبرِّحٍ
مليكا غدا من بعضِ خدَّامِه الدَّهْرُ

وَلِمْ لا يحوزُ الأرضَ شرقًاومغرِبًا
ولله فى إعــــلاءِ رتبتسه سِرُّ

وإنك لترى هذا الإحساس عند كثير من الشعراء ، تحس

قلوبهم بانّ صلاح الدين مهيّأ لأداء امر عظيم .

ومن ذلك ما كتبه إليه اسامة بن منقذ من قصيدة قالها بعد معركة لصلاح الدين مع الفرنج عند عسقلان :

تهنَّ يا أطولَ الملوكِ يدا

في بسطِ عدلٍ ، وسطوةٍ ، وندى

أجراً وذكراً ، من ذلك الشّكرُ في الدّ

نيا ، ومن ذلك الجنان غدا

لا تستقلّ الّذي صَنَعْتَ فقد

قُمْتَ بفَرْضِ الجهادِ مُجتهدا

وجُسْتَ أرضَ العِدَا ، وأفْنَيْتَ من

أبطالِهِم ما يجاوزُ العَدَدا

وما رأينا غزَا الفَرَنْجَ من الـ

ـملوكِ في عُقْرِ دارِهم أحدا

فسِرْ إلى الشّامِ ، فالملائكةُ الأبْ

رارُ تلقاكَ مُلْتقى حَمَدا

فهو فقـــــيرٌ إليك يأمُلُ أن

تُصْلِحَ بالعَدْلِ منـه مافسدا

واللهُ يُعْطِيكَ فيـه عاقبةَ النَّصْـ

ـرِ ، كما فى كتـابِهِ وَعَـدا

فما حباكَ الورى ، وألهمك العدْ

لَ وأعطاكَ ما ملـكْتَ سُدَى

وجلس صلاح الدين فى دار العدل بدمشق يرفع المظالم ، ويعيد الحقوق إلى أصحابها ، ويبطل ما كان الولاة قد استجدّوه بعد موت نور الدين من الضرائب غير العادلة ، فوقف سعادة بن عبد الله يسجل له سهره على العدالة ، ويدعو له بدو الملك ، ويقول :

فى دارِ عَدْلٍ مُذْ طَلَعْتَ بأفقِهَا

بدرًا جَلَوْتَ الظُّلْمَ عَن سُكَّانِها

فبقيتَ مُقْتصِباً بتاجِ بهائِهـا

فى دَسْتِ مَجْلِسِها ، وفى إيوانِها

ما أصبحَتْ أيدى الرّعيّة تجْتَنِي

عفواً ثِمارَ الأمن من بُستانِها

ويقف الشاعر فى اليوم التالى فيدعوه إلى أن يضم حلب إلى سلطانه ، ويقول له :

واخطُبْ بحدِّ المواضِى كلَّ شامخةٍ

فى أنفِها شَمَمٌ ، فى جيدِها غَيَدُ[1]

فمن يكُنْ بالمواضِى خاطباً أبداً

زُفَّتْ إليه بلادٌ كلُّها خُرُدُ[2]

هل بعد جِلِّقَ إلّا أن ترى حلبا

وقد تحلَّلَ منها مُشْكِلٌ عقدُ

وقد أتتكَ كما تختارُ ، طائعةً

وقد عَنَا[3] لك منها الحصنُ والبَلَدُ

كما دعاه إلى حلب أيضا أبو الفضل بن حميد الحلبىّ ، فقال له من قصيدة :

(١) الغيد : ميل العنق . (٢) الخرد : جمع خريدة ، وهى : البكر .
(٣) عنا : خضع .

يابنَ أيُّوبَ ، لابَرِحْتَ مَدَى الدَّهـ

رِ رفيعَ المكانِ والسّلطانِ

حَلَبُ الشّامِ نحوَ مرآكَ وَلْهَى

وَلَهَ الصَّبِّ رِيعَ بالهِجْرانِ

وقال ابن سعدانَ الحلبيّ من قصيدة ، يحرّضه على فتح حلب أيضا :

دونَكَ والحسناءَ أمَّ القُرى

وصخرَها الأشهبَ ، والطَّوْدَ الأشمّ

واركبْ إلى العَلْياءِ كُلَّ صَعْبَةٍ

أَبَيْتَ لعْناً ، وخَلاكَ كلُّ ذم

مُدَّ إلى أختِ السُّهاءِ[1] زَوْرَةً

لا فَرَقٌ[2] يعقُبُها ، ولا نَدَم

إيهٍ صلاحَ الدِّين ، شُدَّ أزرَها

واعزِمْ عليها ، فالزَّمانُ قد عَزَم

(١) السهاء : ممدود السها ، وهى كوكب خفى من بنات نعش .

(٢) الفرق : الخوف .

ودونكَ المَنْعَةَ من قِبَابِهـا

وبَابِهَا المُغْلَقَ فى وجـــه الأُمم

ويمضى صلاح الدين إلى حلب ، ويستولى على قلعتها ، ويقول ، وهو يصعد إليها : والله ، ما سررت بفتح مدينة كسرورى بفتح هذه المدينة ، والآن قد تبينت أننى أملك البلاد ، وعلمت أن ملكى قد استقر وثبت ؛ ويجلس لتقبل التهنئة ، فينشده يوسف البراعىّ قصيدة منها :

شرفَتْ بسامى مجدِكَ الشَّهْباءُ

وتجلّلَتْهـا بهجـــة وضيـاءُ

ألقَتْ إليكَ قِيَادَهَا ، وبهـا على

كلِّ المـــلوكِ ترفُّعٌ وإباءُ

وينشده سعيد بن محمّد الحريرىّ قصيدة منها :

وصبَّحْتَ شهباءَ العواصم مُصْلِتاً

قواضِبَ عَزْمٍ لا يُفَلُّ شهيرها(١)

---

(١) صبحه : جاءه صباحا . والقواضب : جمع قاضب ، وهو : السيف القطاع . وفل السيف : ثلمه . والشهير : المشهور ، من شهر السيف : رفعه على الناس .

فأمطيتَ منها غَارِبا[1] فيكَ راغبا

وعادَ يسيرًا فى يَدَيْك عسيرها

وردَّ إليهـا روحُ عَدْلِكَ روحَها

وكانتْ رَمِيماً لايُرَجّى نُشُورُها

وقال أبو طيّ النّجّارُ من قصيدة يبيّن فيها مكانة حلب :

حَلَبٌ شامةُ الشّآم ، وقد زِيـ

ـدَتْ جلالًا بيوسُفٍ وجمالا

هى أسُّ الفَخَارِ مَن نال أعلا

ها تعَالَى نخـامةً ، وتغَالَى

ومحلُّ العَلاَءِ ، مَنْ حَلَّ فيهـا

تَاهَ كبرا وعزّةً وجـلالا

مَنْ حواها مُمَلَّكاً ملَكَ الأَرْ

ضَ اقتسارا[2] : سُهُولةً وجبالا

---

(١) أمطى الدابة : جعلها مطية . والغارب : ما بين السنام الى العنق .

(٢) الاقتسار : القهر .

والشعراء هنا قد سجلوا لحلب الشهباء مناعتها وقيمتها بين البلاد ، وغالى بعضهم فجعل من يملكها قديرا على امتلاك الأرض كلها سهلها وجبلها .

وقد رأى الشعراء أن فى توحيد صلاح الدين للبلاد تحت حكمه صلاحا لهذه البلاد نفسها ، بعد أن شقيت هذه البلاد بحكام لا يصلحون لتدبير الملك ، ولا لإدارة شئون الرعية ، يصف ذلك ابن سناء الملك فيقول :

ممـــالكٌ لم يدبِّرْها مدبِّرُها
إلاّ برأيِ خصيٍّ أو بعقْلِ صَبِي
حتّى أتاها صلاحُ الدّين، فانْصَلَحَتْ
من الفسادِ ، كما صحَّتْ من الوَصَبِ[1]

وفى هذا التوحيد إجلاء لظلمة طال ليلها على الإسلام ؛ يقول العماد من قصيدة يصور فيها توحيد صلاح الدين للبلاد تحت رايته ، وخروجه من ظفر إلى ظفر ، ثم يتنفّس الصعداء ، ويقول له :

وجلَّ عن المسلميـــن ليلَهُمُ المدَّجِي

(١) الوصب : المرض .

ويرون فى هذه الفتوح وتوحيد كلمة البلاد تمهيدا لفتح القدس ، ونصر كلمة الإسلام ، فهذا الفتح به تتم الفتوح ، وهو لها الغاية والأمل ، يقول العماد من قصيدة :

بفتوحِ عصرِك يفخَرُ الإسلامُ
وبنورِ نَصْرِكَ تُشْرِقُ الأيّامُ

أسدى صلاحُ الدّين والدُّنيـا يدا
بنوالِهـا سوقُ الرّجاءِ تقَامُ

فتمل فتحك ، واقصد الفتحَ الذى
بحصُولِهِ لفتُوحِكَ الإتمـامُ

دُمْ للعلا ، حتّى يدومَ نظامُهـا
واسلم ، يَعِزَّ بنصرِكَ الإسلامُ

لقد تبع الشعر خطى صلاح الدين ، وسجل ما بذله من الجهود فى سبيل توحيد سورية ومصر ، حتى اتحدا تحت رايته الصفراء اللون ، التى يقول فيها علم الدين الشاتانى :

غدا النّصرُ معقودا برايتِك الصّفْرَا
فسِرْ ، وافتحِ الدُّنْيا ، فأنت بها أحْرَى

وظل يتبع خطاه طول حياته ، لا تكاد تجد حدثا هاما لم يأخذ الشعر بنصيب فيه ، ويكون صدى لشعور الشعراء إزاء هذا الحدث . بل لقد شارك الشعر فى أمور ليس لها أهمية تاريخية ، فقد عمّر صلاح الدين بمصر حمّاما ، فكتب العرقلة على هذا الحمام تلك الأبيات :

يا داخلَ الحمّامِ ، هنّيتَها[1] دائرةً كالفلكِ الدّائِرِ
تأمّلِ الجنّةَ قد زُخْرِفَتْ وعُمِّرَتْ للملِكِ النّاصِرِ
كأنّما فيضُ أنابيبِهــا نداهُ للوَارِدِ والصّادِرِ

تحدث الشعر عن معاركه مع الفرنج ، وما تم بينه و بينهم من هدنة ، وسوف نتحدث عن ذلك فى فصل خاص . ولكن نرى قبل ذلك أن نتحدث عن الآمال التى عقدت عليه ، وأفصح عنها الشعراء فى قصائدهم .

— ٢ —

فمنذ ولِىَ صلاح الدين حكم مصر عقد الشعر عليه الأمل فى طرد الصليبيين من الساحل وفتح بيت المقدس ، وانتزاعه من يد الفرنج ، يقول له العماد مرة :

(١) أنث الشاعر الحمام ، مع أنه مذكر .

وما يرتوِي الإسلامُ حتى تغادِرُوا
لكُم مِن دماءِ الغادرين بها غُدْرا
فصُبُّوا على الإفرَنج سَوْطَ عذابها
بأن يَقْسِمُوا ما بينها القتلَ والأسْرا
ولا تُهْمِلُوا البيتَ المقدّسَ، واعزِموا
على فتحِهِ غازين ، وافترعوا البِكْرا

ويقول له أخرى :

يا مُخْجِلَ البحـــرِ بالأَيادِي
قَد آنَ أَنْ تفتَحَ السَّواحِل
فقدّس القُدْسَ من خبـــاث
أرجاس كُفْر غُتْمٍ أراذل

ويقول له عُمارةُ اليمنيّ بعد أن غزا صلاح الدّين غَزَّةَ وعسقلان :

لعلَّ بني أيُّوبَ إنْ علِموا بما
تظلَّمتُ منـــه أن يرقُّوا ويُشْفِقوا

غزَوْا عُقْرَ دار المشركين بغزَّةٍ
جِهارا، وطَرْفُ الشِّرْكِ خزيانُ مُطْرِقُ
وزاروا مُصَلَّى عسقلان بأرعَنٍ
يفيضُ إناءُ البَرِّ منه ، ويَفْهَقُ(1)
وكانت عَلَى ماشاهدَ النّاسُ قبلهم
طرائقَ من شَوْكِ القَنَاليس تُطْرَقُ
وما عَصَمَتْهُمْ منك إلّا مَعَاقِلٌ
تأنَّوْا علَى تحْصِينها ، وتأنَّقُوا
أضفْتَ إلى أجرِ الجهادِ زيارةَ الـ
خليلِ ، فأبْشِرْ ، أنت غازٍ مُوَفَّقُ
وهيّجتَ للبَيْتِ المقدّسِ لوعةً
يطولُ بهـــا منه إليك التّشوّقُ
تنشّقَ من مَلقاكَ أعظمَ نفحةٍ
تطيبُ على قلبِ الهُدَى حين تُنْشَقُ

(1) الأرعن : الجبل الطويل . وفهق الاناء : امتلأ .

وغزوُكَ هذا سُلمٌ نحوَ فتحِهِ
قريبا ، وإلاّ رائدٌ ، ومُطرَّق[1]

هو البيتُ إن تفتَحْهُ ، واللهُ فاعلٌ
فما بعده بابٌ من الشّامِ مُغْلَقُ

ويقول العماد :

فَسِرْ وافتحِ القُدْسَ ،واسفِكْ به
دماءً متى تُجْرِها يَنْظُفِ

وخَلِّصْ من الكُفْرِ تلك البلا
دَ يُخَلِّصُكَ اللهُ في الموقِفِ

وليس بعجيب أن يعقد الناس آمالهم على من يحكم مصر أن يفتح بيت المقدس ، ويسترد السواحل ؛ فإن عنده من الإمكانيات ما يمهد له السبيل إلى تحقيق هذه الآمال ، وقد وجد من وزراء مصر من جعل من أهدافه الكبرى استرداد فلسطين وطرد الغاصب ، كالوزير المصرى طلائع بن رزّيك ، فقد كانت سراياه تترى إلى تلك الديار ، وكان من كبار امانيه

(١) مطرق : طريق ممهد .

أن يعقد مع نور الدين محمود معاهدة يهاجمان بها الفرنج، نور الدين من الشمال، وطلائع من الجنوب، وبذلك يدفعان العدو إلى الحرب فى جبهتين معا، فيقضيان عليه، ويقذفان به إلى البحر، ولكن حال دون هذا الاتفاق اختلاف العقائد بين الاثنين: فنور الدين سُنّى، وطلائع شيعى. فلما جاء صلاح الدين راود الأمل النفوس فى أن يتحقق على يديه آمال طلائع.

ولما انضمت دمشق إلى ملكه زاد الأمل فيه رسوخا، ودعاه الشعراء إلى استعادة الوطن السليب. يقول له سعيد بن عبد الله:

فاسلَمْ صلاحَ الدّينِ، وابقَ لِدَوْلةٍ
ذَلّتْ لدَوْلتِها ملوكُ زمانِها
وانهَضْ إلى فتْحِ السّواحِلِ نهضةً
قادَت لك الأعداءَ بعد حِرَانِها

فإذا فتح صلاح الدين بيت المقدس وضع الشعر فيه أمله أن يجتث أصل الفرنج من باقى ديار فلسطين، إذ يقول له العماد:

قل للمليكِ صلاحِ الدّين أكرمِ مَنْ
يمشى على الأرض، أومَنْ يركبُ الفَرَسا:

مِن بعدِ فتحِكَ بيتَ القدسِ ليس سِوى
«صُورٍ» فإن فُتِحَتْ فاقصِد «طرابلسا»

أَثِرْ على يوم «أنطرسوس» ذا لجب
وابعَثْ إلى ليلِ «أنطاكيَّة» العسسا

وأَخْلِ ساحِلَ هذا الشّامِ أجمعه
مِن العُداةِ ومَن فى دينه وكسا[1]

ولا تَدَعْ مِنهمُ نفْسًا ولا نَفَسا
فإنّهم يأخذون النّفْسَ والنَّفَسا

وكلما فتح صلاح الدين بلدا دعاه الشعر إلى فتح ما بقى فى يد العدو؛ حتى إذا بقيت «صور» التى تجمع إليها الفرنج من كل حدب ينسلون قال له فتيان الشاغورى:

فانهضْ «لصورٍ» فهى أحسنُ صورةٍ
فى هيكلِ الدُّنيا بدَتْ لمصوِّرِ

ما سورُ «صورٍ» عاصمٌ منه، وهل
سورُ المعاصِم عاصمٌ لمسوِّرِ

(١) وكس: نقص.

وإذا كان الشعراء قد وضعوا آمالهم فى صلاح الدين ان يفتح على يديه ما اغتصبه الفرنج من أرض الوطن فقد رأينا بعض الشعراء لا يقف عند حدود هذا الأمل ، بل يمتد به الطموح إلى توحيد العالم الإسلامى تحت راية صلاح الدين ، ويرى هذا البطل هو الجدير بحكم هذا العالم الإسلامى ، وقد رأيت هذا الطموح فى شعر العماد الذى استبشر بفتح صلاح الدين للقدس ، فرأى فى فتح هذا البلد العصىّ ما يجعل فتح غيره من الأقطار هينا على صلاح الدين ؛ فقال له :

تَوَكَّلْ على اللهِ الّذى لكَ أصبحَتْ
كلاءته دِرْعاً ، وعصمتــــه تُرْسا

ولا تُنْسِ شِرْكَ الشّرْقِ غَرْبَك مُرْوياً
بمــاء الطُّلَى من صاديات الظُّبا الخُمسا(١)

وإنّ بلادَ الشّرْقِ مُظْلمةٌ ، نخذْ .
خراسان ، والنّهرين ، والتّرك ،والفرسا

---

(١) الطلى : الأعناق . والظبا : جمع ظبة ، وهى حد السيف وغرب كل شىء : حده .

لقد بلغ صلاح الدين فى نفوس الشعراء مبلغاً كبيراً ، ورأوه جديراً بأن يكون حاكم بلاد الإسلام ، بدل ما كان فى عهده من حكام صغار .

بل رآه بعضهم جديراً بملك الأرض،فقال الحكيم أبو الفضل :

وَمَنْ أحقّ بمُلْكِ الأرضِ من مَلِكٍ
كأنّه مَلَكٌ فى الخلقِ حنّانُ

ويدعو له الشعر أن يصحبه التوفيق أينما كان ، فيقول له الشاعر عقيل بن يحي :

أطاعتكَ أطراف الرّدينيّةِ[1] السُّمْرِ
وسالمَكَ التّوفيقُ فى البرِّ والبحرِ
وعِشْتَ مدى الأيّامِ لا قال قائلٌ
كَبَابِكَ زَنْدٌ فى عظيمٍ من الأمرِ

— ٣ —

ولا تكاد معركة من معاركه مع الفرنج لم يقل فيها الشعراء شعراً يصورها ويخلدها ، حتى صغار المعارك قيل فيها الشعر الذى صور إحساس الناس إزاءها .

(١) الردينية : الرمح .

فمنذ معركة دمياط التى ابلى فيها صلاح الدين بلاء حسنا ، عندما كان وزيراً للعاضد ، إلى أن عقدت الهدنة بينه و بين ملك الإنجليز : ريتشارد قلب الأسد قبل وفاته بقليل ؛ تغنى الشعر بمعاركه مع الفرنج .

ففى أول صفر سنة خمس وستين وخمسمائة نزل الفرنج على دمياط يريدون أن يملكوها ليكون لهم موطىء قدم يأوون إليه ، فقد خافوا من هذه الوحدة أن تتم بين الشام ومصر بعد أن انتصر أسد الدين شيركوه فى مصر ، وأرسل فرنج الساحل إلى الفرنج الذين بالأندلس وصقلية يستمدونهم ، ويخبرونهم بما تجدد من أمر مصر ، وأنهم خائفون على بيت المقدس أن يسقط فى أيدى المسلمين ، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان ، يحرضون الناس على الحركة ، فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح ، ورأوا النزول على دمياط ؛ ظنا منهم أنهم يملكونها ، ويتخذونها ظهرا يملكون به ديارمصر ، فلما نزلوها حصروها ، وضيقوا على من بها ، فأرسل إليها صلاح الدين الجند فى النيل ، وملأ دمياط بالمقاتلة من الأبطال والفرسان ، وأمدهم بالمال والسلاح والذخائر ، وأخذ صلاح الدين يشن الغارات عليهم من الخارج ، والجند يقاتلونهم من الداخل ،

حتى ظهر المصريون على اعدائهم ، ورحل الأعداء عن دمياط فى الحادى والعشرين من ربيع الأول ، بعد حصار وعراك دام خمسين يوما ؛ فقال عمارة اليمني :

مَنْ شاكرٌ ، واللهُ أعظمُ شاكرٍ
ما كانَ من نُعْمَى بنى أيّوبِ
طَلَبَ الهُدَى نصراً ، فقال ، وقد أتَوْا :
حَسْبى ، فأنتم غايةُ المطلوبِ
جلبُوا إلى دمياطَ عند حصارِها
عزَّ القويِّ ، وذلَّةَ المغلوبِ
وجَلَوْا عن الإسلامِ فيها كُرْبَةً
لو لم يُجَلُّوها أتت بكروبِ

والشاعر يعترف بفضل الأيوبيين فى الدفاع عن دمياط ، ويثبت ما كان لإجلاء الفرنج عن دمياط من أثر فى كبح جماح طغيانهم ، والحد من أطماعهم .

أما الشهاب فتيان الشاغورى فيقول من قصيدة :

ولمّا أتَوْا دِمياطَ كالبحرِ طامياً
وليسَ له من كثرةِ القومِ ساحلُ

يزيدُ عن الإحصاء والعدِّ جمعُهُم
ألوفُ ألوفٍ خيلُهُمْ والرّواحِلُ

رَأَوْا دونَهُم أُسْدًا بأيديهم القنا
و بيضا رِقاقًا أحكَمَتْها الصَّياقِلُ(۱)

ودارُوا بِهافى البحرِ مِن كلِّ جانبٍ
ومِن دونِها سَدٌّ من الموتِ حائلُ

رجَاالكلبُ مَلْكُ الرُّومِ إذذاكَ فتْحَها
نخافَ ، فأمَّ المُلْكَ والرّومَ هابلُ

فعادوا على الأعقابِ منهـا هزيمةً
كأنّهُمُ ذُلًّا نعـــامٌ جَوَافِلُ(٢)

وما أمَّلُوا أن يلحَقُوا ببـــلادِهِم
لتَعْصِمَهم ممّا رأَوْهُ المعـــاقل

(١) الصياقل : جمع صيقل ، وهو : صانع السيف .
(٢) جوافل : جمع جافل ، وهو : المنزعج .

والشّهاب هنا يصور الجمع الذى حشده الفرنج فجعله كالبحر الطامى ، وقد استقبلهم الجيش المصرى فى شجاعة نادرة ، وسلاح كامل ماض ؛ كما صور حصار الفرنج دمياط ، وما كان يدور فى نفوسهم من الآمال فى الاستيلاء عليها ، ثم عودتهم عنها أذلاء مهزومين .

ويهنىء العماد صلاح الدين بنصره على الفرنج فى دمياط ، فيقول له من قصيدة :

يا يوسفَ الحسن والإحسانِ ، ياملكاً
بجدّه صاعداً ، أعداؤه هبطوا
هُنِّيت صونَكَ دمياط الّتى اجتمَعَتْ
لها الفرنجُ ، فما حلُّوا ولا رَبطُوا

ويرسل إليه قصيدة أخرى يقول له فيها :

وحُطْتَ دمياطَ إذْ أحاطَ بها
مَنْ برُجُومِ البلاءِ يَقْذِفُها
لاقَتْ غُوَاةُ الفَرَنجِ خَيْبَتَها
فزاد من حسرةٍ تأسُّفُها

أوردتَ قَلْبَ القُلُوبِ أرشِيّــةً[1]

من القَنَـــاَ للدّماءِ تنزِفُهــــا

يُمْضِي لكَ اللهُ في قتـــــالِهِمُ

عزيمةً للجِهـــادِ تُرْهِفُهـــا

والعماد هنا يصور ماأعده العدو من أدوات الفتك والتدمير لدمياط، ثم مالاقاه من خيبة الأمل أمام ما كان للجيش المصرى من أسلحة ماضية حطمت آمال المعتدين.

فلما فتحت طبرية وهزم الفرنج عند حطين سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، تقدم الشعر مهنئا صلاح الدين ذاكرا فضله وبلاءه فى المعركة، فممن قال فى هذا الفتح على بن السّاعاتى، فقد أنشأ قصيدة جاء فيها:

جَلَتْ عَزَماتُكَ الفتحَ المُبِينـا

فقد قرّتْ عيونُ المؤمنينـــــا

ردَدْتَ أخيذَةَ الإسلامِ لمّا

غَدَا صَرْفُ القضـاءِ بها ضمينا

(١) أرشية : جمع رشاء ، وهو الحبل ، ويريد بالأرشية : السيوف والرماح .

يقاتِلُ كلُّ ذى مُلكٍ رياءً

وأنت تقاتِلُ الأعداءَ دينا

غَدَتْ فى وَجْنَةِ الأيّامِ خالاً

وفى جيدِ العُلاَ عِقْدًا ثَمينا

فيا للهِ ، كم سَرَّتْ قلوباً

ويا للهِ ، كم أبكَتْ عُيونا

وما طبرّيةٌ إلاَّ هَدِيٌّ(١)

ترفَّعُ عن أكفِّ اللاّمِسِينا

حَصَانُ الذّيلِ لم تُقْذَفْ بِسُوءٍ

وسلْ عنها اللّيالىَ والسِّنينا

فَضَضْتَ خِتامها قسْرًا ، ومَنْ ذَا

يَصُدُّ اللَّيْثَ أن يلجَ العرينا

قضَيْتَ فَرِيضةَ الإسلامِ منها

وصدَّقتَ الأمانىَ والظُّنونا

---

(١) الهدى كغنى : العروس .

تَهُزُّ معَاطِفَ القُدْسِ ابتهاجاً
وتُرْضِى عنك مكَّةَ والحَجُونا[1]

فلو أنَّ الجمادَ يُطيقُ نُطْقاً
لنـادتك : ادخُلُوها آمنينا

جَعَلَت صَبَاحَ آهِلِهَا ظلاماً
وأبدَلْتَ الزَّئِيرَ بها أَنِينَا

تخَالُ حُمـاةَ حَوْزَتِهَا نِساءً
يخوضونَ الحَدِيدَ مُقنَّعِينا

لِبيضِكَ[2] فى جَمَاجِمِهِمْ غِنَاءٌ
لَذِيذٌ علَّمَ الطَّيرَ الحَنِينا

تمِيلُ إلى المُثقَّفَةِ العوَالِى
فَهَلْ أَمْسَتْ رِمَاحاً أم غُصُونا

يكادُ النَّقْعُ يذْهِلُها ، فلولا
بُرُوقُ القَاضِبات[3] لمَا هُدِينا

(١) الحجون : جبل بمكة . (٢) البيض : السيوف .
(٣) القاضبات : السيوف القاطعة .

فكَمْ حازَتْ قُدُودُ قَنَاكَ منها
قُدُودًا كالقَنَا : لونًا ولِينَا

وغِيدٍ كالجــآذرِ آنِساتٍ
كَغِيدِ نداكَ أبكارا وعُونا

ولمَّا باكرَتْهــا منك نُعْمَى
بَنانٍ تفْضَحُ الغَيْثَ الهَتُونا

أعَدْتَ بها اللَّيالىَ وهىَ بيضٌ
وقد كانتْ بهــا الأيّامُ جُونا[1]

فلا عَدِمَ الشَّآمُ وساكِنُوهُ
ظُبىً تشفِي بها الدَّاءَ الدَّفِينا

سُهادُ جُفُونِهَا فى كلِّ فَتْحٍ
سُهــادٌ يَمْنَحُ الغَمْضَ الجُفُونا

(١) الجون : السود .

فَأَلِمْ بالسَّوَاحِلِ ، فهيَ صُورٌ
إليكَ ، وَأَلْحِقْ الهام المتُونا

فَقَلْبُ القُدْسِ مَسْرُورٌ ، ولولا
سُطَاكَ لكان مكتئباً حَزِينَا

أدرْت على الفرَنْجِ ، وقد تلاَقَتْ
جُمُوعُهُمُ عليك رحًى طَحُونا

ففِي «بيسانَ» ذَاقُوا منك بُؤْساً
وفى « صَفَدٍ » أَتوْكَ مُصَفَّدِينا

لَقَدْ جاءتهُمُ الأَحْدَاثُ جَمْعاً
كأَنَّ صُرُوفهــا كانتْ كَمِينا

وخانَهُمُ الزَّمَانُ ، ولا مَـــلاَمٌ
فَلَسْتُ بِمُبْغِضٍ زمناً خَئُونا

لَقَدْ جَـــرَّدتَ عزماً ناصِرِيًّا
يُحَدِّثُ عن سَنَاهُ طورُسِينَــا

فـكُنتَ كيُوسُفَ الصّدّيق حقًّا

له هَوَتِ الـكَواكبُ ساجدينا

لقد أتْعَبْتَ مَن طَلَبَ المعَـــالى

وحاوَلَ أن يسوس المُسْلمينا

وإن تلكُ آخراً ، وخَلَاكَ ذَمٌّ

فإنّ محمّدا فى الآخرينـــــا

والشاعر فى هذه القصيدة يمجد عزمات صلاح الدين التى كان من آثارها هذا الفتح المبين ، ويبين أثرهذا الفتح فى نفوس المؤمنين ، فقد قرت به أعينهم ، ولم لا تقر عيونهم ، وقد رد صلاح الدين إلى الإسلام ما أخذ منه .

ويقف الشاعر معجبا بخصلة من خصال صلاح الدين ، تلك هى عقيدته التى تدفعه إلى قتال عدوه ، فهو لا يريد بقتالهم رياء ولا سمعة ؛ ولـكنه يخوض غمرات القتال مدافعا عن عقيدته ودينه .

ويصف الشاعر المعركة بأنها تجمّل الأيام ، وتتميز بين المعالى ، وتزينها .

ويبين اثر هذه المعركة فى النفوس فبينا هى قد سرت نفوس المؤمنين ، أبكت عيون الفرنج المهزومين .

ويصور الشاعر طبرية بالعروس .

ويمضى متحدثا عن هذا الفتح الذى حقق به البطل آمال المسلمين ، وجعل بلاد الإسلام تهتز ابتهاجا بالنصر المبين .

ويتحدث الشاعر عن المعركة ومن أسر فيها ، ويدعو للبطل إن تظل سيوفه تفتح البلاد ، ويحثه على فتح ما بقى من بلاد الساحل . ويسجل ما سبق أن فتحه صلاح الدين مما كان فى يد الفرنج .

ويفرح الشعر بخذلان العدو ، ومجىء الأحداث متوالية بهزيمتهم .

ويسجل للبطل الفاتح ما بلغه من مجد يتعب من يريد الوصول إلى مثله ، ولا يضيره أن يأتى فى الزمن الأخير ، فقد جاء محمد آخر الأنبياء والمرسلين .

ومن قصيدة للشهاب فتيان الشاغورى يصف معركة حطين :

جاشَت جيوشُ الشّركِ يومَ لقيتَهُمْ
يتذامَرُونَ على مُتُونِ الضُّمَّرِ (١)

(١) التذامر : التحاض على القتال . والضمر : جمع ضامر، وهو الفرس الخفيف اللحم .

أوردتَ أطرافَ الرِّماحَ صُدُورَهُم

فولَغْنَ فى عَلَقِ النَّجيعِ الأحمَرِ[1]

فهناكَ لم يُرَ غـــيرُ نجمٍ مُقْبِلٍ

فى إثْرِ عِفريتٍ رَجيمٍ مُدْبِرِ

فَمَنِ الذى مِنْ جيشِهِم لم يُخْـتَرَمْ[2]

ومَن الّذى من جمعِهِم لم يؤسرِ

حتّى لقد بيعَتْ عَقَائِلُ أُزْهقَتْ

بالسَّبْىِ بالثَّمَنِ الأخسِّ الأحقرِ

لا يَعْدَمَنْكَ المسلمون ، فكم يداً

أولَيْتَهُم مَعْروفَهـــا لم تُنْـكَرِ

آمَنْتَ سِرْبَهُمُ ، وصُنْتَ حريمَهم

ودرَأْتَ عنهم قاصِماتِ الأظْهُرِ

ما إنْ رآكَ اللهُ إلّا آمِراً

فيهم بمعروفٍ ، ومُنْكِرَ مُنْـكَرِ

---

(١) العلق : الدم الغليظ . والنجيع : الدم .

(٢) اخترم القوم : استأصلهم

متواضعا لله جلَّ جَــــلالُهُ
وبك اضمحلَّتْ سطوَةُ المتكبِّرِ
لم يخلُ سَمْعٌ من هَنَاءِ مهنِّئٍ
للمسلمين ، ومن سماعِ مُبَشِّرِ
واستعظَمَ الأخبارَ عنكَ مَعَاشِرٌ
فاستصغروا ما استعظَموا بالمَخْبَرِ
مضت الملوكُ ، ولم تَنَلْ عُشْرَ الذى
أوتيتَه من مَنْجَحٍ أو مفخَرِ[1]

والشاعر هنا يصور الأعداء وقد مضوا بين قتيل وأسير ، وقد نجم عن كثرة الأسر أن بيعت الأسيرات بأبخس الأثمان . ويذكر التاريخ أنه بلغ من هوان أسرى الفرنج وكثرتهم أن بيع منهم يومئذ واحد بنعل[2]. وتسجل القصيدة ما لصلاح الدين من آثار بيضاء على المسلمين فى ذلك الحين ، فقد جعلهم يأمنون بعد خوف ، ويطمئنون على سلامة حريمهم ، وصيانة نسائهم ، ودفع عنهم شر الفرنج وما كان المسلمون يجدونه منهم من العنت والمشقة.

---

(١) المنجح : النجاح (٢) الروضتين ٢ : ٨٢

وتشيد القصيدة ببعض صفات البطل من انقياده لأمر الدين ، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، وما كان يتصف به من تواضع برغم تحطيمه قوى الباغين المتكبرين . وتصور أثر المعركة الناجحة فى قلوب المسلمين ، وبهجتهم بها ، وتوازن بين صلاح الدين ومن سبقه من الملوك .

ومما ينبغي أن يوجّه إليه النظر أن الشعراء الذين تحدثوا عن معركة بيت المقدس التى دارت بعد معركة حطين خصصوا جزءا من قصائدهم للحديث عن معركة حطين ، فقد نظروا إليها على أنها مقدمة لهذا الفتح المجيد .

وأكبر مانال تمجيد الشعراء فى أيام صلاح الدين معركة بيت المقدس ؛ وقف الشعراء ينشدون صلاح الدين شعرهم ، وأرسل كثير منهم قصائد التهنئة إليه عندما لم يستطيعوا إنشاده ، وأنشأ بعض الشعراء أكثر من قصيدة فى هذا الفتح المبارك . وظفر الأدب العربى بذخيرة من شعر الفتح يمتاز كثير منه بالقوة وتدفق ماء الحياة . ومن ذلك قصيدة لفخر الكتّاب الحسن الجوينىّ ، منها قوله :

جُنْدُ السَّماءِ لهذا المَلْكِ أعْوانُ

من شكَّ فيهم فهذا الفتحُ برهانُ

متى رأى النّاسُ ما نحكيه في زَمَنٍ
وقد مضَتْ قبلُ أزمانٌ وأزمانُ

هذي الفتوحُ فتوحُ الأنبياءِ ، وما
له سوى الشُّكْرِ بالأفعالِ أثمانُ

أضحتْ ملوكُ الفَرَنجِ الصِّيدُ في يده
صَيْدًا ، وماضَعُفوا يوما ، وماهانُوا

كم من فُحولِ ملوكٍ غودِروا ، وهُمُ
ـ خوفَ الفرنجة ـ وِلدانٌ ونسوانُ

استصرَخَتْ بملكشاه طرابُلُسٌ
فخامَ[1] عنها ، وصَمَّتْ منه آذانُ

هذا ، وكم مَلِكٍ من بعدِه نظر الـ
إسلامَ يُطوَى ويُحْوَى، وهو سكران

تسعون عاما بلادُ اللهِ تصرُخُ ، والـ
إسلامُ أنصارُهُ صُمٌّ وعُمْيَانُ

(١) خام عنه : نكص وجبن

فالآنَ ابَّى صلاحُ الدّين دعوَتَهُم
بأمرِ مَنْ هو للمِعْوَانِ مِعْوَانُ
للنّاصِرِ ادّخِرت هذى الفتوحُ، وما
سَمَتْ لها هِمَمُ الأملاكِ مُذ كانوا
فى نصفِ شهرٍ غدا للشِّرْكِ مصطلما
فطهّرت منه أقطار وُبلْدَانُ
لو أنّ ذا الفتحَ فى عصرِ النّبيّ لقد
تنزّلت فيه آياتٌ وقرآنُ
خَزَنتَ عند إلهِ العرشِ سائرَ ما
ملكته ، وملوكُ الأرضِ خُزَّانُ
فاللهُ يبقيكَ للإسلامِ تحرُسُه
من أن يُضامَ ، ويُلْفَى وهو حيرانُ
وهذه سَنَةٌ أكْرِمْ بها سَنَةً
فالكفرُ فى سِنَةٍ ،والنَّصْرُ يقظانُ

إذا طوَى اللهُ ديوانَ العبادِ فما
يُطوَى لأجرِ صلاحِ الدّينِ ديوانُ

والشاعر هنا يبهره الفتح الذى جاء بعد طول يأس وانتظار ، فلم يشك فى أن الملائكة كانوا أعوانا فى هذا الفتح ، فقد مضت أزمان متطاولة لم ير الناس فيها مثل هذا النصر المبين. إن هذا الفتح فتح نبى لا ملك .

ومضى الشاعر يوازن بين صلاح الدين ومن سبقه من الملوك : أما صلاح الدين فقد صار ملوك الفرنج فى يده أسرى برغم أنهم لم يكونوا ضعافا ولا أذلاء ، أما من قبله من الملوك فكثير منهم كانوا كالولدان أو النساء خوفا من الفرنج. ولست أشك فى أن فى ذلك كثيرا من المبالغة ، فإن كثيرا من الملوك قبل صلاح الدين حاربوا الفرنج ، وحاولوا أن يستردوا مااغتصب من أرض الوطن ، ولكن لم تكن لديهم همة صلاح الدين ولاما فى يده من الإمكانيات .

ويسجل الشاعر على أحد هؤلاء الملوك ويدعى : ملكشاه الذى استصرخت به طرابلس ، فلم يسمع نداءها ، وأعرض عنها .

وهكذا انقضت تسعون عاما وهذا الجزء من أرض الوطن

فى يد أعدائه ، يستغيث ولا مغيث ، حتى جاء صلاح الدين ، فاستجاب للنداء ، ومضى يدمر الغاصبين المعتدين .

ويهتف الشاعر من أعماقه لهذا العام المبارك ، فقد تم النصر فيه على العدو فى معركتين خالدتين : معركة صفين ، و بيت المقدس .

ويقول الشريف النسابة المصرى من قصيدة :

أترى منــــاماً مَا بعينى أُبْصِرُ
القُدْسُ يُفْتَحُ والفَــرَنْجَةُ تُـكْسَرُ
ومليكُهُم فى القيــــد مصفودٌ[1] ولم
يُرَ قبــل ذاك لهم مليــك يؤسرُ
قد جاء نصرُ اللهِ والفتحُ الّذى
وعــد الرّسولُ ، فسبِّحوا ، واستغفروا
فُتِـحَ الشّآمُ ، وطُهِّرَ القُدسُ الّذى
هو فى القيـامةِ للأنامِ المحشَرُ
يا يوسف الصِّـــدّيقُ أنت لفتحِها
فاروقُها عمــــرُ الإمـامُ الأطهَرُ

(١) مصفود : مقيد مغلول

ويشترك هذا الشاعر والشاعر السابق فى الإعجاب بهذا الفتح إعجابا ظن معه أن ما يراه بعينه هو حلم تمر أحداثه فى المنام ، وهذه القصيدة وسابقتها توحيان بأن النفوس يومئذ كانت ترى استرجاع ما اغتصب من أرض الوطن أملا عسير التحقق ، فرأينا الشاعر الأول يؤكد أن الذى أعان على هذا الفتح إنماهم الملائكة ، ونرى الثانى يتساءل إن كان ما يراه حقيقة أم حلما ؟ بينما يعده الساماتى آية عظمى ، وذلك إذ يقول :

أعيّا وقد عاينتُمُ الآيةَ العظمى

لأيّةِ حالٍ نذخَرُ النّـثْر والنّظْمَا

وتدلان كذلك على أن المسلمين لم يكونوا يستهينون بأمر الفرنج وملوكهم ، وإنما كانوا يرون الغلبة عليهم محتاجة إلى جهد عنيف ، ويرون ملوكهم أشداء أقوياء ؛ ولهذا انصرف الشعر إلى تمجيد صلاح الدين تمجيدا رفعه إلى درجة أنه يشبه الخلفاء الراشدين .

وقال ابن جبير الأندلسى :

أطلّتْ على أفقِـك الزّاهِرِ

سُـــــعودٌ من الفلَكِ الدّائِرِ

فأبشِرْ ، فإنّ رقاب العـــدا
تُمـدُّ إلى سيفِك البـاتِر

وكمْ لك من فتـكَةٍ فيهمُ
حكَتْ فتـكَةَ الأسدِ الخادر(١)

كسرتِ صليبَهُمُ عَنـــوْةً
فللّه دَرُّكَ من كاسر

وغــيّرتَ آثارَهُم كلَّهـــا
فليس لهـا الدّهرَ من جابر

وأمضيتَ جِدّكَ في غزوهم
فتعساً لجــدّهُمُ العاثر

وأدبرَ ملـكُهُمُ بالشّـــآ
مِ ، وولّى كأمسِهِمُ الدّابِرِ

جنودُكَ بالرُّعبِ منصـــورةٌ
فناجِزْ متى شئتَ ، أو صَابِرِ

(١) الأسد الخادر : الساكن في الأجمة

فكلُّهُمُ غَرِقٌ هالِكٌ
بتيَّارِ عسكرِكَ الزّاخرِ

ثأرتَ لدينِ الهُدَى في العِدَا
فآثَرَكَ اللهُ من ثائِرِ

وقُمْتَ بنصرِ إله الورَى
فسمّاكَ بالملِكِ النّاصرِ

وجاهدتَ مجتهدًا صابراً
فللهِ أجرُكَ من صابِرِ

تبيتُ الملوكُ على فرشهم
وترفُلُ في الزَّرَدِ السَّابرى[1]

وتؤثرُ جاهدَ[2] عيشِ الجها
دِ على طيبِ عيشِهم النّاضر

وتسهرُ ليلَكَ في حقِّ مَنْ
سيرضيك في جفنِكَ السَّاهرِ

---

(١) السابرى : درع دقيقة النسج . والزرد : الدرع .
(٢) جهد عيشه بكسر الهاء : نكد واشتد .

فتَحتَ المقدَّسَ من أرضِهِ
فعادت إلى وصفِها الطاهرِ
وجئتَ إلى قُدسِهِ المرتَضى
فخلَّصتَه من يد الكافرِ
وأعليتَ فيه منارَ الهــدى
وأحييتَ من رسمِهِ الداثر[1]
لكم ذَخَرَ اللهُ هــذا الفُتو
حَ من الزّمنِ الأوّلِ الغابرِ
وخصّكَ من بعــد فاروقِهِ
بها لاصطناعِك فى الآخــر
محبَّتُكُم أُلقِيَتْ فى النفو
س بذكرٍ لكم فى الورَى طائر

والقصيدة واضحة المعنى ، سهلة العبارة ، تحمل كثيراً من التفاؤل ، فبعد فتح القدس أمل الناس استرداد جميع أجزاء

(١) دثر الرسم : امحى . والرسم : ما بقى من آثار الديار .

الوطن المغتصب ، ولذلك صح لابن جبير أن يقول فى هذه القصيدة :

وأدبر ملكُهُمُ بالشـآ

مِ وولّى كأمسـهِمُ الدّابِرِ

ويطول بى وجه القول إذا أنا أوردت ما قيل فى معركة بيت المقدس من الشعر ، وما قيل فى بقية معاركه ، فذلك مقدار ضخم لا سبيل إلى إيراده .

— ٤ —

واحتفظ الشعر لصلاح الدين بصورة ترسم سجاياه التى أعجب بها أهل عصره ؛ ومن تلك السجايا صفات شخصية ، وأخرى اجتماعية ، ومنها ما كان يسوس بها شئون رعيته ، ومنها صفات حربية ، وأخرى دينية .

أما الصفات الشخصية التى أعجب بها الشعراء فآراؤه الصائبة السديدة التى تبدو كأنها وحى أو إلهام . يقول فيه سعادة ابن عبد الله :

فتًى مهتَدِى الآراءِ فى كلِّ حادثٍ

مضلٌّ لآراءِ الرجالِ بها خَبْطُ

ويقول فيه مرة أخرى :

صعبُ العريكةِ ، سهلُ الرّاحتَينْ له
رأى حصيفٌ قويمٌ غيرُ ذى مَيَلِ
رأى شديد القُوَى ، ما فيه من خَوَرٍ
لا بل سديدُ النُّهَى ما فيه من خَلَلَ

وهو يقرن رأيه بالعزم ، قال فيه أبو الفضل الجليانىّ :

لتظفَرَنَّ بما لم يحوِهِ ملكٌ
أبا المظفَّرِ ، حظاًّ خطَّهُ الأزَلُ
دليلُ ذلكَ أراءٌ لكَ اقترنت
بالحزمِ والعزمِ ، لم يُخْصَصْ بها الأُوَلُ

وهو دائم اليقظة والتنبه ، فلا غرابة إن ظفر بما لم يظفر به سواه ، قال ابن سناء الملك :

أرادَ ملوكُ الأرضِ سعدَك ، واشتَهَوْا
تعلُّمَهُ ، والسَّعْدُ لا يُتعَلَّمُ

ملكت أقاليم الملوك ، وإنّما
سهرْت وأملاكُ الأقاليمِ نُوَّمُ

وهو عظيم الهمة بعيد الآمال ، يقول عنه ابن سناء الملك :

حتّى أتى مَنْ منالُ النّجمِ مطلَبُهُ
يا طالبَ النَّجْمِ ، قد أوغَلْتَ فى الطّلبِ

ويقابل الشدائد التى تصادفه بصدر رحب ، بل يجد فى عراكها عذوبة ولذة ، قال فيه سعادة بن عبد الله :

أغرّ ، يعذُبُ صابُ[1] الحادثاتِ له
فصابُها عندَه أحلَى من العسَل

وهو زاهد كذلك رغم سعة ملكه وعظم سلطانه . يقول الحكيم أبو الفضل :

زهدت فيما سبي الأملاك منكدرا
علما بملك نعيم ما به كدر
وطبت نفسا عن الدنيا وزخرفها
وجئت تقدم حيث الهول والخطر

(١) الصاب : عصارة شجرة مرة .

أما صفاته الاجتماعية فقد مجد الشعراء من بينها كرمه ، وأكثروا الحديث عن هذه الصفة ، يقول سعادة بن عبد الله :

سَمْحٌ يروحُ إلى النَّدِيّ براحةٍ
قد أعشَبَ المعروفُ بين بنَانِها
وفتًى إذَا زَخَرَتْ بحارُ نوَالِهِ
غَرِقَتْ بحارُ الأرضِ فى خُلجانِها

ويقول سبط ابن التعاويذى :

فلا يُضْجِرَنكَ ازدحامُ الوفو
دِ عليك ، وكثرةُ ما تبـــذُلُ
فإنَّكَ فى زمنٍ ليس فيـ
ـه جوادٌ سواكَ ، ولا مُفْضِلُ
وقد قلَّ فى أهـــلِهِ المنعمو
ن ، وقد كثُر البائسُ المُرْمِلُ
وما فيه غـــيرُكَ من يُسْتَمَا
حُ ، وما فيه إلاكَ من يُسْأَلُ

ويقول نشو الدولة أبو الفضل :

وكم لصَلاحِ الدّينِ ، مذ كان ، من نَدىً
إذَا ضوّع[1] النّادى به خجلَ العِطْرُ

ويقول أبو طالب بن الخشاب :

ولقد ظمئتُ فلم أجد بدلا من المـا
ءِ الزُّلالِ سوى مواطرِ سُحْبِه

ويقول علم الدين الشاتانى :

يمينُك فيها اليُمْنُ ، واليسْرُ فى اليُسْرَى
فبُشْرَى لمن يرجو النَّدى منهما ، بُشْرَى

ويقول العماد :

وقيلَ لنا : فى الأرضِ سبعةُ أبحُرٍ
ولسنا نَرَى إلّا أناملَه الخمسَ ا

ويقول سبط بن التعاويذى :

قسمًا لقد فضَلَ ابنُ أيّوبَ الحيَا[2]
بسماحِ كفٍّ بالنُّضَارِ هَتُونِ[3]

(١) ضاع المسك : تحرك ، فانتشرت رائحته . وتضوع أيضاً .
(٢) الحيا : المطر .   (٣) النضار : الذهب . وهتن المطر : قطر .

مخلوقة من سُؤْدُدٍ وندًى ، وقد
خُلِقَ الأنامُ سلالَةً من طين
يا مَنْ إذا نَزَلَ الوفــودُ ببابه
نزلوا بجمٍّ من نــــداه معين

وقال ابن الدّهّانِ :

بيدَىْ فتًى لو أنّ جــودَ يمينه
للغيث ، لم يَكُ مُمْسِكا عن موضِعِ
فإذا تبَسَّمَ قال : يا جودُ ، اندفق
فيضا ، ويا سحبَ النَّدَى ، لا تقلعى

ومجدوا فيه كذلك صفة الحلم ، يقول فيه سعادة :

كريمٌ إذا ماجاءه معدمٌ حبا
حليم إذا ماجاءه مجرمٌ عفا

ويقول فيه نجم الدين يوسف بن الحسين :

عزمٌ وحزمٌ أنْسَيَا ما كان من
عزم ابنِ مِرْداسٍ وحلمِ الأحنفِ

اما سياسته لرعيته فتتسم بالعدل ، يقول فيه سبط بن الجوزى :

الملكُ العادلُ الّذى كشفَاللّـــهُ به همَّ كلِّ مكروبِ

ويقول أسامة بن منقذ :

وسِرْتَ سيرةَ عدلٍ فى الأنامِ كما

قضَى به الصّادقان:الشَّرْع والسُّوَرُ

وبالتواضع الذى لا يخدش العزة ، واللين الذى لا يمس الهيبة ، يقول له سبط بن التعاويذى :

لكَ عِفَّةٌ فى قدرةٍ ، وتواضعٌ

فى عزّةٍ ، وشراسةٌ فى لينٍ

وبهذه الصفات استطاع أن يملك قلوب شعبه بالحب والمهابة يقول فيه أسامة بن منقذ :

ملكَ القلوبَ محبّــــةً ومهابةً

فاقتادها طوعا بهيبـــــة غاصب

ويجمّـل الملك ذا السلطان أن يجتمع إلى هيبته حب القلوب له واجتماع الأفئدة حوله ، كالوالد يحبه بنوه ، ويهـابونه فى وقت معا .

بهذه الصفات ايضاً كان جديراً بالملك واحق به ، يقول فيه الحكيم أبو الفضل :

وَمَنْ أحقُّ بمُلك الأرضِ من ملك
كأنّه مَلَكٌ في الخلقِ حنّان

وكانت صورة صلاح الدين بطلا مجاهداً من أبرز الصور التى احتفظ بها الشعر له ، كتب إليه أسامة بن منقذ يقول :

تَهَنَّ ياأطـــــولَ الملوكِ يدا
في بسطِ عدلٍ ، وسطوةٍ وندى
لا تستقلَّ الّذى صنَعْتَ ، فقد
قُمتَ بفرض الجهاد مجتهدا
وجُبْتَ أرض العِدَى ،وأفنَيْتَ مِن
أبطالِهم ما يجاوزُ العـــــدَدا
وما رأينـــــا غزَا الفرَنجَ من الـ
مُلُوكِ في عُقْرِ دارِهم أحـــــدا

وقال الرّشيد بن النّابلسىّ من قصيدة له :

ما أبهجَ الدِّينَ والدُّنيا بمالِكها الصِّ

دِّيقِ يوسُفَ ، لا لاَذَتْ به الغِيَرُ (١)

مَلْكٌ تساوَى جُمادَى في الجِهاد ، وتمُّ

وزٌ لديه ، وضاهى ناجرا صفر (٢)

فليس يَثْنيه حَرٌّ إن توقَّد عن

رِضا الإله ، ولا إن أغدق المطَرُ

ولا يُنَهْنِهُهُ عمّـــا يكابده

ضَجٌّ ، أُعيذُ معاليهِ ، ولا ضَجَرُ

ولا يرى الرَّوْحَ إلّا ظَهْرَ سَلْهَبَةٍ

في بَطْنِ معركةٍ مركوبُها وَعِرُ (٣)

صبرٌ جميل ، كطعم الشّهد في فمه

وعند كلِّ مليكٍ طعمه الصَّبِرُ (٤)

---

(١) غير الدهر : أحداثه .

(٢) تموز : شهر يولية . والناجر : كل شهر من شهور الصيف .

(٣) الروح : الراحة . والسلهبة من الخيل : ما عظم وطال عظامه .

(٤) الصبر بكسر الباء : الدواء المر .

وهو فى ميدان القتال شجاع ، قال فيه أسامة :

يُعطى الألوفَ ، ويلتقيها باسما

طلقَ المحيّا فى القَنَا المتشاجِرِ

يلقى العدو بقلب ثابت صادق اليقين ، أرسل إليه فخر الكتّاب الجوينى قصيدة منها :

لك قلبٌ عند اللِّقاءِ مكينٌ

وله من تقُـــــاهُ ألفُ كمين

يا مليكا يَلْقَى الحروبَ بحول

مستعصما وصدقِ اليقين

وهو فى صدر عدوه مهيب مرهوب الجانب ، حتى صار اسمه يبعث الرعب فى نفس العدو ، ويدفعه إلى الفرار والهزيمة ، قال أبو الفضل الجليانى :

فكم مليكٍ لهم شقّ البحارَ سُرًى

لينصر الكفرَ ، والأقدارُ تخذُلُه

وكم ترحّلَ منهم فيلقٌ بفلاً
إلى الخوامعِ ألقاهُ ترحُّلُهُ(١)

استصرخوا الأهلَ، والعدوَى تمزّقهم
واستكثروا المال ، والهيجا تُنَفِّلُهُ(٢)

كم قد أعدُّوا ، وكم قد فُلَّ جمعُهُمُ
من غير ضربٍ ولا طعنٍ يُزَيِّلُهُ

و إنّما اسمُ صلاحِ الدّينَ يذكَر فى
جيش العدوِّ ، فيسبيهم تخيُّلُه

وقال الحسين بن عبد الله بن رواحه :

لقد خَبَرَ التّجاربَ منه حَزْمٌ
وقلّب دهرَه ظهراً لبَطن

فساق إلى الفَرَنج الخيلَ برًّا
وأدركهم على بحـــر بسُفْن

(١) الخوامع . جمع خامعة ، وهى الضبع ، لأنها تخمع ، أى تمشى كأن بها عرجا .
(٢) تنفله . تجعله غنيمة.

يَرَوْن خيالَه كالطَّيفِ يسرِى

فلو هجَعــــوا أتاهُم بعدَ وَهْنِ[1]

أبادهُمُ تخوُّفُـــــــهُ ، فأمسى

مُنَـــــــاهُم لو يبيّتُهُم بأمنِ

وهو خبير بالحرب ، فقيه بأمورها ، أرسل إليه من مصر نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور قصيدة يقول له فيها :

ملكٌ له فى الحربِ بحرُ تفقُّــــهٍ

ولهُ غداةَ السِّـــلْمِ زُهدُ تصوُّفِ

وعليه أُنزلَ فى الجهادِ مفصَّلٌ .

فلذاكَ يقرؤهُ بسبعةِ أحرُف

ولعل الشاعر يريد بقراءة صلاح الدين للمفصل الذى أنزل عليه فى الجهاد أنه يتصرف فى فنونه على ألوان شتى يبهر بها العدو .

ولِمَ لا يكون مرهوب الجانب وقد :

---

(١) الوهن : الهزيع من الليل .

تملكَ حولهَم شرقًا وغربًا

فصاروا الافتـــناصِ تحتَ رَهْنِ

وذلك لأنه ملك مصر والشام والإفرنج بينهما .

وتحدث الشعراء كثيراً عن جيشه الضخم ، فيصوره أسامة ابن منقذ بأنه إذا مشى خلته لجة من الماء ، أمواجها ما على رءوس الجند من الخوذ ، وما يتلألأ فى أيديهم من السيوف ، وذلك إذ يقول :

وإذا سرَى خِلْتَ البَسيطةَ لُجّةً

أمواجُها بَيْضٌ[1] وبِيضٌ قواضبُ[2]

ويتحدث سعادة بن عبد الله عن هذا الجيش ، فيصفه بأنه كالجراد لا يحصى له عدد ، فإذا سار إلى ميدان القتال أثارت خيله عجاجاً يظلله ، كأنه سماء عمدها قنا الجيش ، شهبها ترصد العدو لتصيبه ؛ وصوارم الجيش فى دجى النقع تضىء كالنيران بأيدى جند شجعان يصغر إلى جانبهم جن عبقر وأسد بيشة ، وبمثل هذا الجيش يدرك صلاح الدين ما يتمناه . وذلك إذ يقول متحدثاً عن الجيش :

(١) البيض ، جمع بيضة وهى الخوذة . (٢) القواضب ، السيوف .

عرمْرَمٌ كالدَّبَى[1] الطَّيّارِ منتشرٌ
تُحصى الرّمالُ ، ولا يُحْصَى له عَددُ

تسمو عليـــه سماءٌ من عَجاجَتِهِ
مبنيَّةٌ من قنـــاه تحتها عُمُدُ

سماءُ نقْعٍ لشيطانِ العدوِّ بهـــا
من الأسنّةِ شُهبٌ كلُّها رَصَدُ

وفى دياجيه نارٌ من صَوارِمِهِ
تكادُ تقطُرُ ماءً ، وهى تتّقِدُ

نارٌ تُشَبُّ على أيدى غَطارِفَةٍ[2]
لا يَبرُقُ الجوُّ إلّا كلّما رَعدُوا

ماجِنُّ عَبْقَرَ جِنٌّ كلّما عزَفوا
ما أُسْـدُ بيشةَ أُسْـدٌ كلّما حَرِدوا[3]

---

(١) الدبى : الجراد .
(٢) غطارفة : جمع غطريف ، وهو السيد الشريف .
(٣) حرد : غضب . وعبقر : موضع كثير الجن . وبيشة : واد فيه موضع مشجر كثير الأسد.

مَن كلِّ أروعَ أمّا رمحُه ثَمِلٌ
لا يستفيقُ وأما سيفُه غَرِدُ

في كُلِّ يومِ جِلادٍ لو ألمَّ به
عمرو بن وُدٍّ(1) عَداه الصَّبْر والجلَدُ

شِمْ بالشَّآمِ سيوفا من عزائمِهم
إذا غمَدتَ المواضى ليس تنغمِد

ولا تخَفْ؛ فالعوالى شوكُها ثمرٌ
حلوُ الجنى ، والمعالى صابُهَا شُهُدُ

واخطُبْ بحدِّ المواضِى كلَّ شامِخَةٍ
فى أنفها شَمَمٌ ، فى جيدها غَيَدٌ

فمن يكُن بالمواضى خاطبا أبدا
زُفَّتْ إليه بلادٌ كلُّها خُرُدٌ(2)

و يصف مرّة أخرى هذا الجيش ، فيقول :

---

(1) عمرو بن ود، فارس قريش وشجاعها فى الجاهلية وأدرك الاسلام ولم يسلم.
(2) خرد . جمع خريدة ، وهى الحيية .

بأرعَنَ مثلِ رُعنِ الطَّوْدِ مَجْرٍ[٥]
تضيقُ به من الأرضِ الرِّحابُ
خميسٍ سوف ترضَى البيضُ عنه
إذا زأرت ضراغِمُه الغِضابُ
تكُرُّ على الصُّقور به أسودٌ
عليها للقَنَا الخطيِّ غابُ
كأنَّ مُثارَ قسطَلِهِ[٦] عليهم
إذا طلعت شُموسُهُمُ ضَبابُ .

ويصفه اسامة بن منقذ ، فيقول :

وبدلتَ أموالَ الخزائِنِ بعدما
هرِمَت وراء خواتِمِ الخزّانِ
فى جمع كلِّ مجاهدٍ ، ومجالدٍ
ومبارزٍ ، ومُنازلِ الأقرانِ

---

(٥) الأرعن : جبل ذو ألف يتقدمه . والطود : الجبل . والمجر : الجيش العظيم
(٦) القسطل . الغبار .

من كلّ مَن يردُ الحروبَ بأبيضٍ
عَضْبٍ، ويصدُرُ وهو أحمرُ قانِ

ويخوضُ نيرانَ الوغَى، وكأنّه
ظمآنُ خاضَ مواردَ الغُدْرانِ

قوم إذا شهدوا الوغى قال الورى:
ماذا أتى بالأُسْــــدِ من خَفّانِ(1)

لو أنّهم صدموا الجبالَ لزعْزعوا
أركانَها بالبِيضِ والخُرْصَانِ(2)

فهمُ الذّخيرةُ للوقائِع بالعِدّى
ولِفتحِ ما استعصَى من البُلدانِ

ويقول العماد:

جنودُكَ أمــــلاكُ السّماء وظنّهمُ
عُداتُك جنّ الأرض فى الفتكِ لا الإنسا

(1) خفان: مأسدة معروفة يضرب بها المثل.
(2) الخرصان: جمع أخرص، وهو القناة والسنان.

وهذا الشعر كله مجمع على شجاعة جند صلاح الدين، وحبهم للقتال، وإقدامهم على أعدائهم فى بسالة وعزم.

وصلاح الدين لا يضن على هذا الجيش بمال، بل هو كريم مع جنده، وتلك سياسة حكيمة، قال عبد المنعم الجليانى:

إنّ الملوكَ الذين امتـــدّ أمرُهُمُ
لم يخزُنوا المالَ، بل مهما حَوَوْا بَذَلُوا
كذا السّياسةُ، فالأجنادُ لو علموا
بُخلَ المليكِ وجاءت شِدَّةٌ خذلوا

وأشاد الشعر كذلك بأسطول صلاح الدين وما جلبه من الأسرى، إذ قال ابن رواحة الحموى:

لقد خبرَ التّجاربَ منـــه حزمٌ
وقلَّبَ دهرَهُ ظهراً لبطنِ
فكفّ الكفرَ أن يطغى بمكرٍ
يُحيِّر كلَّ ذى فكرٍ وذِهْنِ
فساقَ إلى الفرنج الخيلَ برّا
وأدركهُم على بحرٍ بسُفْنِ

لقد جلب الجوارىَ بالجوارى
يَمِدْنَ بكلِّ قدٍّ مرجَحِنِّ(1)

ووصف الشعر أيضاً رايته وسيفه ورمحه وجواده ، فقال سعادة بن عبد الله :

ورايةٌ ما هفَتْ يومًا ذوائبُها
إلّا على قدٍّ عسّالٍ من الذُّبُل(2)
صفراء ، خافقةٌ بالنّصرِ ، حائزةٌ
بالحول(3) ما لم يحُزْهُ الغَير بالحيل
منشورةٌ ليس يُطوَى عزمُ صاحبِها
حتّى ينالَ مكانًا قطُّ لم يُنَل
وصارمٌ مُرْهَفٌ خفَّتْ مضاربُهُ
فليس يسبِقُ إلاّ سرعةَ الأجَلِ

(1) المرجحن : المائل . (2) العسال : الرمح . والذبل ، جمع ذابل ، وهو القناة . (3) الحول : الحذق ، وجودة النظر ، والقدرة على التصرف والقوة ، والقدرة .

سيفٌ ليوسُفَ ما قُدَّت حديدتُه
إلاّ من الظَّفَرِ المقرونِ بالجذَلِ
كأنّه ، وهو فى يُمناهُ مُنْصَلِتٌ
برقٌ جلا عارضًا فى عارضٍ هَطِلِ[1]
وذابلٌ عِطفه يهتزُّ من طرب
إلى الطّعانِ ولا يهتزّ من خطل
يزدادُ من طَوْلِهِ طولا براحتِه
إذا طِوَالُ الرُّدينيّات لم تَطُلِ
وسابحٌ لو يجارى الرّيح عاصفةً
لقُيِّدت خطواتُ الرّيحِ بالفَشَلِ
سهلُ القيادِ ، فما يُعْزَى إلى شَغَبٍ
جمُّ النّشاط ، فما يُدعَى إلى كَسَل
نجمٌ يمرُّ ببدرٍ فى دُجَى قَتَمٍ
صقرٌ يكُرُّ بليثٍ فى شَرَى أَسَل[2]

(١) العارض الهطل . السحاب الممطر . (٢) الأسل . الرماح .

وصلاح الدين بجيشه العرمرم يهين الفرنج ، ويذلهم ، ويحطم قواهم ، ويخضد شوكتهم ، قال العماد :

بنو الأصفرِ الإفرنجُ لاقَوْا بضه
وسُمْرِ عَوَاليـــــه مَنَايَاهُمُ حُمْرَا
وما ابيضَّ يومُ النَّصْرِ ، واخضرَّ روضُه
من الخصبِ حتّى اسودّ بالنَّقْعِ واغبرّا

— ٥ —

فليس بعجيب أن يرتاع الشعر لفقده ، وان يرثيه احر رثاء ، ويندب فيه تلك الخلال السمحة التى جعلته حبيباً إلى القلوب ، أثيراً لدى النفوس ، ورمزاً للدفاع عن الإسلام ، واسترداد الوطن السليب ، فمن ذلك تلك القصيدة للعماد بلغت مائتين واثنين وثلاثين بيتاً يقول فيها :

شملُ الهُدَى والملكِ عمَّ شتاتُه
والدّهرُ ساء ، وأقلعَتْ حسناتُه
أين الّذى كانت له طاعاتُنا
مبـــــذولةً ، ولربِّه طاعاتُه

بالله ، أين النّاصرُ الملكُ الّذى
لله خالصةً صفَتْ نيّـــاتُه

أين الذى مازال سلطانا لنـــا
يُرْجَى نداهُ ، وتُتَّقَى سطواتُه

أين الّذى شَرُف الزّمانُ بفضلِه
وسَمَتْ على الفُضَلَاء تشريفاتُه

أين الّذى عَنَتْ الفَرَنجُ لبأسِه
ذُلًّا ، ومنها أدركت ثاراتُه

مَنْ فى الجهادِ صِفاحُه ماأُغْمِدَت
بالنَّصْرِ ، حتّى أغمدت صَفَحاتُه

لَذَّ المتاعبَ فى الجهادِ ، ولم تَكُنْ
مُذ عاشَ قطُّ لِذَاتِه لَذَّاتُه

مسعودةٌ غُدُواتُه ، محمـــودةٌ
روحاتُه ، ميمونةٌ ضَحَوَاتُه

لا تحسَبوه مات شخصا واحدا
قد عمَّ كلّ العـــالمين مماتُه

ملكٌ عن الإسلامِ كان محاميا
أبدا ، إذا ما أسلمَتْه حُمـــاتُه

قد أظلمَتْ مُذ غاب عنّا دورُه
لمّا خلَتْ من بَدْرِهِ داراتُه

دُفِنَ السّماحُ ، فليس تُنْشَرُ بعدما
أودَى إلى يومِ النّشورِ رُفاتُه

الدّينُ بعـــد أبي المظفَّرِ يوسفٍ
أقوت قراهُ ، وأقفرت ساحاتُه

ما كنتُ أعلمُ أنّ طودا شامخا
يهوى ، ولا تهوِى بنا مهواتُه

مَنْ لليتـــامى والأرامِل راحمٌ
متعطِّفٌ مفضوضةٌ صدقاتُه

لو كان في عصر النّبيّ لأنزلت
في ذكرِه من ذكره آياتُه

يا راعيا للدّينِ حين تمكّنتْ
منه الذّئابُ ، وأسلَمَتْهُ رُعاتُه

ما كان ضرّكَ لو أقمتَ مراعِياً
دِينا تولّى مُذ رحلتَ وُلَاتُه

أرضيتَ تحتَ الأرضِ يامَنْ لمَ يزل
فوقَ السّماء عليّةً دَرَجَاتُه

أعْزِزْ على عيني برؤية بهجة
الدنيا ، ووجُهك لا تُرَى بهجاتُه

مَنْ للثّغورِ ، وقد عداها حفظُه
مَن للجهادِ ولم تُعد عاداتُه

ملأتْ مهابتهُ البلادَ ؛ فإنّه
أسدٌ ، وإن بلادَه غاباتُه

ما كان أسرع عصرَه لما انقضى
فكأنّما سنَوَاتُه ساعاتُه

فعلى صلاحِ الدّينِ يوسُفَ دائما

رِضوانُ ربٍّ العرشِ بل صلواتُه

وهـذا الجزء من القصيدة يلمس النواحى الإسلامية التى ندبها المسلمون عند ما فقدوا صلاح الدين ، ويبين ما كان يملأ قلوبهم من حب له وإعزاز ؛ فالشاعر يتألم ؛ لأنه يرى الدنيا الجميلة ولا يرى وجه صلاح الدين ، ويشعر بأن أيامه قد انقضت مسرعة كأنها ساعات ، ويمجد أعمال صلاح الدين ، لدرجة أنه يراها جديرة بأن ينزل فيها قرآن ، لو أنها تمت فى عصر نزول القرآن .

وبعد ، فلست أدعى أن الشعر الذى قيل فى صلاح الدين يروعنا جميعه بقوة أسلوبه ، فقد نجد عبارة بعض الشعراء الذين تغنوا ببطولته لم تستطع أن يكون لها نصيب كبير من القوة والجزالة ، ولـكنها برغم ذلك تبين عن عاطفة صادقة ، وتحاول أن تسجل إعجابها بهذا البطل المجيد .

ومن المؤكد أن للعصر الذى أنشىء فيه هذا الشعر أثره فى تقييد كثير من الإنتاج الشعرى بالرغبة الملحة فى أن يكون

للصنعة والزخرف مكان فى هذا الشعر ، إذ تجد فيه كثيراً من ألوان المحسنات البديعية .

ولكن ذلك لم يستطع أن يحجب عن قلوبنا ما كان الشعراء يحسون به نحو فاتح بيت المقدس ، وهازم الفرنج المزائم المنكرة ، وما كان يتصف به من أخلاق جمعت حوله قلوب معاصريه .

وإذا استثنينا بعض الهنات التى وردت فى هذا الشعر رأينا الباقى لنا مما صور به بطولة صلاح الدين ، واضح التعبير ، سليما فى دلالته على معناه ، قريب المأخذ ، لاغموض فى فهمه، ولاالتواء فى دلالته ، ووجدنا الصور التى اختارها الشعراء واضحة بينة ، مما يدل على أن قائلى الشعر كانوا يجدون فى أنفسهم إعجاباً قوياً بالبطل ، واستطاعوا أن يعبروا عن هذا الإعجاب بخير مافى وسعهم من الشعر .

صلاح الدين
بين كتاب عصره

[illegible] الكتاب فى الحديث عن صلاح الدين ، فأرخوا له حيناً ، وسجلوا شماته الخلقية حيناً آخر ، ونخص بالذكر ثلاثة من بين كتاب عصره ، هم : ابن شداد ، والعماد الأصبهانى ، والقاضى الفاضل .

أما ابن شداد فقد وضع فيه كتابا سماه : النوادر السلطانية ، والمحاسن اليوسفية . جعل قسمه الأول فى ذكر مولد صلاح الدين وأوصافه وشمائله ، وجعل القسم الثانى فى بيان تقلبات أحواله وفتوحاته .

وتحدث فى القسم الأول عن مواظبة صلاح الدين على القواعد الدينية ، وعن عدله ، وكرمه ، وشجاعته ، واهتمامه بأمر الجهاد ، وصبره ، وحلمه ، ومحافظته على أسباب المروءة .

ويروى ابن شداد ما رآه من أحواله التى تثبت هذه الصفات ، فمن ذلك قوله : « وكان (قدس الله روحه) حسن الظن بالله ، كثير الاعتماد عليه ، عظيم الإنابة إليه . ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه : وذلك أن الفرنج (خذلهم الله)

كانوا نازلين ببيت نوبة ، وهو موضع قريب من القدس الشريف ، حرسها الله تعالى ، بينهما بعض مرحلة ، وكان السلطان بالقدس ، وقد أقام (يزكا)[1] على العدو محيطا به ، وقد سير إليهم الجواسيس والمخبرين ، فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصعود إلى القدس ومحاصرته ، وتركيب (القنابل) عليه ، واشتدت مخافة المسلمين بسبب ذلك ، فاستحضر الأمراء ، وعرفهم ما قد دهم المسلمين من الشدة ، وشاورهم فى الإقامة بالقدس ... ولقد جلست فى خدمته فى تلك الليلة ، وكانت ليلة الجمعة ، من أول الليل إلى أن قارب الصبح ، وكان الزمان شتاء ، وليس معنا ثالث إلا الله تعالى ، ونحن نقسم أقساما ، ونرتب على كل قسم بمقتضاه ، حتى أخذنى الإشفاق عليه والخوف على مزاجه ، فشفعتُ إليه ، حتى يأخذ مضجعه ، لعله ينام ساعة ؛ فقال (رحمه الله) : لعلك جاءك النوم ، ثم نهض ، فما وصلت إلى بيتى ، وأخذت لبعض شأنى ، إلا وأذن المؤذن ، وطلع الصبح ، وكنت أصلى معه الصبح فى معظم الأوقات ، فدخلت عليه ، وهو يمر الماء على أطرافه ، فقال : ما أخذنى النوم أصلا ؛ فقلت : قد علمت ؛ فقال ؛ من أين ؟ ؛ فقلت : لأنى ما نمت ، وما بقى وقت

---

(١) اليزك بالفارسية : الحرس .

للنوم ؛ ثم اشتغلنا بالصلاة ، وجلسنا على ما كنا عليه ؛ فقلت له : قد وقع لى واقع ، وأظنه مفيدا إن شاء الله تعالى ؛ فقال : وما هو ؟ فقلت له : الإخلاد إلى الله تعالى ، والإنابة إليه ، والاعتماد فى كشف هذه الغمة عليه ؛ فقال : وكيف نصنع ؟ فقلت : اليوم الجمعة ، يغتسل المولى عند الرواح ، ويصلى على العادة بالأقصى ، موضع مسرى النبىّ (صلى الله عليه وسلم) ، ويقدم المولى التصدق بشىء خفية على يد من يثق به ، ويصلى المولى ركعتين بين الأذان والإقامة ، ويدعو الله فى سجوده ، فقد ورد فيه حديث صحيح ، وتقول فى باطنك : « إلهى ، قد انقطعت أسبابى الأرضية فى نصرة دينك ، ولم يبق إلا الإخلاد[1] إليك ، والاعتصام بحبلك ، والاعتماد على فضلك ، أنت حسبى ونعم الوكيل » ؛ فإن الله أكرم من أن يخيب قصدك ؛ ففعل ذلك كله ، وصليت إلى جانبه على العادة ، وصلى الركعتين بين الأذان والإقامة ، ورأيته ساجدا ، ودموعه تتقاطر على شيبته ، ثم على سجادته ... » .

ويتحدث ابن شداد عن حبه للجهاد ، فيقول : « ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه

(١) أخلد الى فلان : ركن اليه .

استيلاء عظيما ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا فى آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحثه عليه . ولقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسائر بلاده ، وقَنَع من الدّنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة ؛ ولقد وقعت عليه الخيمة فى ليلة ريحيّه على مرج عكا ، فلو لم يكن فى البرج لقتلته ، ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماما . وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد ؛ وأنا ممن جمع له فيه كتابا ، جمعت فيه آدابه ، وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى فى فضله ، وشرحت غريبها ؛ وكان (رحمه الله) كثيراً ما يطالعه . . . . ولأحكين عنه ما سمعته منه ، وذلك أنه ... لما صلى العيد فى القدس وقع له أن يمضى إلى عسقلان ... ثم يعود على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية إلى عكا ويرتب أحوالها ... ثم سرنا فى خدمته إلى الساحل طالبي عكا ، وكان الزّمان شتاء ، والبحر هائجا شديداً ، وموجه كالجبال كما قال تعالى ، وكنت حديث عهد برؤية البحر ، فعظم أمر البحر عندى ، حتى خيل لى أنى لو قيل لى : إن جزت فى البحر ميلا واحداً ملكتك الدنيا لما كنت أفعل ، واستسخفت رأى من ركب البحر رجاء دينار

أو درهم ، واستحسنت راى من لا يقبل شهادة راكب بحر .
هذا كله خطر لى ؛ لعظم الهول الذى شاهدته من حركة البحر ؛ فبينا أنا فى ذلك إذ التفت إلىّ (رحمه الله) ، وقال : « أما أحكى لك شيئاً فى نفسى : إنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد ، وأوصيت ، وودعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائره واتبعتهم فيها ... » ؛ فعظم وقع هذا الكلام عندى ، حيث ناقض ما كان خطر لى ، وقلت له : ... ما هذه إلا نية جميلة ، ولكن المولى يسير فى البحر العساكر ؛ وهو سور الإسلام ومنعته ؛ فلا ينبغى له أن يخاطر بنفسه ؛ فقال : أنا أستفتيك : ما أشرف الميتتين ؟ ؛ فقلت : الموت فى سبيل الله ؛ فقال : غاية ما فى الباب أن أموت أشرف الميتتين .

ويعد كتاب ابن شداد من أعظم المراجع فى تاريخ صلاح الدين .

أما العماد الكاتب ، وهو من كتاب الإنشاء لصلاح الدين فله كتاب الفيح القسى فى الفتح القدسى ، وقد سمى العماد كتابه بذلك يشير إلى أنه فى فصاحته كأنه نفحة من نفحات قس بن ساعدة الإيادى الخطيب الجاهلى الفصيح المشهور .

وفى أول الكتاب يبين العماد منهجه الأدبى التاريخى فى الكتابة عن صلاح الدين .

ولما كان قد سار على نهج إيراد الحوادث متتابعة على حسب السنين ، وكان قد بدأ بإيراد الأحداث منذ سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وهى السنة التى فتح فيها بيت المقدس قال ، معللا سبب اختياره البدء بهذا العام : «وأنا أرخت بهجرة ثانية ... وهذه الهجرة هى هجرة الإسلام إلى البيت المقدس ، وقائمها السطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب ، وعلى عامها يحسن أن يبنى التاريخ وينسق ، وتسفر عن أهلتها دآدىء[1] المداد وتنشق ... وهذه الهجرة أبقى الهجرتين ، وهذه الكرة بقوة الله أبقى الكرتين ، فإن العرب كانت إذا تناهت فى وصف الرجل بالقوة قالت : كأنه كسر ثم جبر ، والحق أن تقول : إن أطول الحياتين حياة المرء إذا مات ثم نشر ، والعيان يشهد أن أمنع السورين ماعمر بعد أن ثغر ... »

فكتاب الفتح القدسى يبدأ بتاريخ الحوادث التى جرت فى عصر صلاح الدين منذ السنة التى فتح فيها بيت المقدس إلى السنة

(١) الدآدىء : جمع دأدأ ، وهى ثلاث ليال من آخر الشهر . شبه بها المداد لشدة سوادها .

التى مات فيها صلاح الدين ، وهى سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، يؤرخ وفاته وما أعقب هذه الوفاة من أحداث .

وقد التزم العماد فى هذا الكتاب اللغة الفنية المصنوعة من ألفه الكتاب إلى يائه ، والتزم السجع التزاما لم يتخل عنه ، فعرض حوادث التاريخ عرضا أدبيا، يمزج فيه الحقائق بعواطف الأديب وإحساساته . وهذا طرف من وصفه لفتح طبرية :
« ونزل على طبرية فى خواصّه ، وذوى استخلاصه . . . وكان ذلك يوم الخميس ، وهو يوم الخميس ، ... ودخل الليل وصباح الفتح مسفر ، وليل الويل على العدو معتكر ،...ولما سمع القومص بفتح طبرية وأخذ بلده ، سقط فى يده ، وخرج عن جلد جَلَدِهِ ، وسمح للفرنج بسبده ولبده[1] ، وقال لهم : لا قعود بعد اليوم ، ولابد من وقم[2] القوم ، وإذا أخـذت طبرية أخذت البلاد ، وذهبت الطراف والتلاد ، وما بقى لى صبر ، وما بعد هذا الكسر لى جبر ، وكان الملك قد حالفه ، فما خالفه ، وواقفه فما نافقه ، ... ورحل بجمعه ، وبصره وسمعه ، وثعابينه وشياطينه ،

---

(١) سبده ولبده : قليله وكثيره .
(٢) وقمه : قهره وأذله .

وسراحيبه[1] وسراحينه[2] ، وأتباع غيه ، وأشياع بغيه ، فادت الأرض بحركته ، وغامت السماء من غبرته ، ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا ، وثابوا عن ثبات سُباتهم[3] ووثبوا ، وعبّوا ، ودبوا حتى يذبوا ، وشبوا النار ، ولبوا الثار ، وقدموا للنزول بالدار البدار ؛ وذلك فى يوم الجمعة رابع عشرى شهور ربيع الآخر ، فما كذب السلطان الخبر حتى صدق عزمه ، بماسبق به حكمه ، وسرحين أحاط بمسيرهم علمه ، وقال : قد حصل المطلوب ، وكمل المخطوب ، وجاءنا مانريد ، ولنا بحمد الله الجد الجديد ، والحد الحديد ، والبأس الشديد ، والنصر العقيد ؛ وإذا صحت كسرتهم ، وقتلت وأسرت أسرتهم ، « فطبرية » وجميع الساحل ما دونها مانع ، ولا عن فتحها وازع ، واستخار الله وسار ، وعدم القرار .

وبرغم ما التزمه العماد من السجع والجناس وغيرهما من ألوان المحسنات فقد استطاع أن يصور لنا المعركة ، والملوك أسرى بعد هزيمتهم ، ولكنه كان أكثر وضوحا وتأثيرا فى

---

(١) الفرس السرحوب : الطويلة . ويقال : رجل سرحوب . والسرحوب : ابن آوى .

(٢) السرحان : الذئب .

(٣) مرض ثبات : معجز ، والسبات . النوم .

تصوير ميدان القتال بعد أن دارت الدائرة على العدو ، فصور امتلاء الأرض بجثثهم ، وما أصاب هذه الجثث من تشويه ودمار ، ثم ما كان من أمر الأسرى مقيدين فى الحبال ، أو مضروبا عليهم الذلة فى حراسة أحد الحراس .

أما القاضى الفاضل فكان أعظم كتاب صلاح الدين شأنا ، وأشدهم إليه قربا ، استوزره صلاح الدين ؛ فكان القاضى الفاضل لسان الدولة الصلاحية ، ولهذا لايكاد يقع حدث فى هذه الدولة من غير أن يكون لقلم القاضى الفاضل مشاركة فيه ؛ فبهذا القلم كانت تذيع بشائر الفتوح إلى بغداد وأنحاء العالم الإسلامى ، وبه يرسل صلاح الدين إلى ملوك الإسلام يخبرهم بأنباء الحرب ، ويستنجد بهم ، بل به كان يبعث رسائله الشخصية ، ويرسل أخبار حكومته وأوامره إلى ولاته ونوابه ؛ فكان من ذلك محصول ضخم من الرسائل هو سجل دقيق لأنباء الدولة الصلاحية .

فمن رسالة كتبها إليه ، عندما قدم صلاح الدين إلى الشام يريد الجهاد . وطرد العدو من الوطن الإسلامى ، ولكن أمورا عاقت صلاح الدين عن المبادرة إلى الجهاد ، فتألم السلطان لذلك ألما شديدا ، فكتب إليه القاضى الفاضل يخفف عليه وقع هذا

الألم ، ومما كتبه إليه : « وأما تأسف المولى على أوقات ينقضى عاطلها من الفريضة التى خرج من بيته لأجلها ، ويجدد العوائق التى لا يوصل إلى آخر حبلها ، فللمولى نية رشده . أوليس الله العالم بعبده ، وهو سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله لأنه غير مقدور له ، ولكن عن النية لأنها محل تكليف الطاعة ، وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة ، وإذا كان المولى آخذا فى اسباب الجهاد ، وتنظيف الطرق إلى المداد ، فهو فى طاعة قدامتن الله عليه بطول أمدها ، وهو منه على أصل فى نجح موعدها . والثواب على قدر مشقته ، وإنما عظم الحج لأجل جهده وبعد شقته ؛ ولو أن المولى فتح الفتوح العظام فى أقل الأيام ؛ وفصل القضية بين أهل الإسلام ، وأعداء الإسلام ، لكانت تكاليف الجهاد قد قضيت ، وصحائف البر المكتسبة بالمرابطة والانتظار طويت » .

ومن هذه الرسالة يبدو شوق صلاح الدين إلى الجهاد ، وتألمه من انقضاء وقت لا يتحقق فيه استخلاص هذا الجزء المغتصب من أرض الوطن .

ويسجل القاضى الفاضل ماأسقطه السلطان من المكوس على حجاج مكة ، وتعويض أميرها عن ذلك بغلة تحمل إليه فى كل

سنة ، وتعيين ضياع موقوفة عليه بالديار المصرية ؛ فقد كان الرسم بمكة ان يؤخذ من الحجاج القادمين من المغرب ضرائب على كل فرد . فإذا دخل حاج حبس حتى يؤدى ماعليه ، وإذا كان فقيرا لايملك شيئا حبس ولايترك ، ويفوته الوقوف بعرفة ، فقال السلطان : لا بد أن نعوض أمير مكة عن هذا المكس بمال ؛ وإن أعطيناه شيئا استوعبها ، ولا يكون لأهل مكة فيها نصيب، فقرر معه ان يحمل إليه فى كل سنة مبلغ ثمانية آلاف إردب قمح إلى ساحل جدة، فإن الأمير بها يحتاج إلى بيعها للانتفاع بأثمانها ، وقرر أيضا حمل الغلات إلى المجاورين بالحرمين ، وكان ذلك سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة . ومن كلام الفاضل عن ذلك فى بعض كتبه . « من البشائر التى لاعهد لحاج ديار مصر بمثلها ، ولا عهد للملك من ملوك الديار المصرية بالحصول على فخرها وأجرها ، انقطاع المكاسين عن جدة ، وعن بقية السواحل ، ويكفى أن تمام هذه المثوبة موجب الاستطاعة ، مقيم بحجة الله فى الحج ، فقد كانت النية على سقوطه مع وجود الحائل؛ وما أكثر ماأجرى الله على يد المولى من الأرزاق ، التى تفضل عن الاستحقاق . . . وغير خاف عن مولانا همة الفرنج بالقدس برا وبحرا ، ومركبا وظهرا ، وسلما وحربا ، وبعدا وقربا ، وتوافيهم على حماسه وهو أنف فى وجه الإسلام ، ومسارعتهم إلى نصرة أهليه بالأرواح

والأموال علىَ مر الأيام ، ومعاذ الله أن يستبصروا فى الضلال ، ونصرف نحن عن الحق ويضيق بنا فى التوسعة على أهله سعة المجال ، ... »

وقد كان لهذه المكرمة أثرها فى الشعر فسجلها محمد بن جبير الأندلسى ، فقال من قصيدة فى صلاح الدين :

رفعتَ مغارمَ مَكْسِ الحجَازِ
بإنعامِكَ الشَّامِلِ الغامِرِ

وأمّنتَ أكنافَ تلك البلادِ
فهانَ السّبيلُ على العابِرِ

وسُحْبُ أياديكَ فيّاضةٌ
على واردٍ ، وعلى صادِرِ

فكم لك بالشّرقِ من حامدٍ
وكم لكَ بالغربِ من شاكِرِ

وكم بالدّعاء لكم كل عامٍ
بمكةَ من مُعْلِنٍ جاهِرِ

وحبّك أنطقنى بالقريضِ
وما أبتغى صِلَةَ الشّاعر

والرسالة والقصيدة ناطقتان بما قابل به العالم الإسلامى هذه المكرمة الصلاحية من التقدير والإعجاب وتمكين حب صلاح الدين فى نفوس شعبه والعالم الإسلامى كله .

وفى كتاب فاضلى يصف القاضى ما كان يلاقيه صلاح الدين من الأدعياء الذين اضطر إلى جهادهم حينا ، ومسالمتهم حينا ، وكان بوده أن لو صرف جهده كله لحرب العدو الذى اغتصب فلسطين ، إذ يقول الفاضل من رسالة على لسان السلطان : «وقد علم الله أنا لهدنتهم كارهون ، وفى مصلحة أهل الإسلام وفى مصالحهم راغبون ، ولكنا بلينا بقوم كالفراش أو أخف عقولا ، وكالأنعام أو أضل سبيلا ، إن بنى معهم فعلى غير أساس ، وإن عدد الغدر منهم فهو أكثر من الأنفاس » .

وذلك يدلنا على أن صلاح الدين لم يكن الطريق أمامه ممهدا للوصول إلى أهدافه فى توحيد البلاد ، بل كان يجد كثيرا من العنت من هؤلاء الذين كانوا يؤذيهم وحدة البلاد .

ويسجل القاضى الفاضل فى كتاب له رحلة صلاح الدين إلى الإسكندرية ، وسماعه موطأ الإمام مالك من الإمام المحدث أبى طاهر بن عوف العالم السكندرى ، فقد كتب إليه رسالة يهنئه فيها بهذا السماع ، ويقول : « أدام الله دولة المولى الملك الناصر

صلاح الدنيا والدين ، وسلطان الإسلام والمسلمين ، محيي دولة أمير المؤمنين ، وأسعده برحلته للعلم وأثابه عليها ، وأوصل ذخائر الخير إليه وأوصله إليها ، واوزع[1] الخلق شكر النعمة فيه فإنها نعمة لاتوصل إلى شكرها إلا بإيزاعه ، وأودع قلبه نور اليقين فإنه مستقر لايودع فيه إلا ما كان مستندا إلى إيداعه ، ولله فى الله رحلتاه ، وفى سبيل الله يوماه ، ومامنهما إلا أغر محجل ، والحمد لله الذى جعله ذا يومين : يوم يسفك دم المحابر تحت قلمه ، ويوم يسفك دم الكافر تحت علمه ؛ ففى الأول يطلب حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم فيجعل أثره عينا لاتستر ، وفى الثانى يحفل لنُصرة شريعة هداه على الضلال فيجعل أثراً لا يظهر ، وقد استغرق الناس همم العلماء فى رحلتهم لنقل الحديث وسماعه ، والموالاة فى طلب ثقته وانتجاعه ، وصنفوا فى ذلك تصانيف قصدوا بها التحريض للهمم والتنبيه ، والرفع من أقدار أهله والتنويه ، فقالوا : رحل فلان لسماع سند فلان ، وسار زيد إلى عمرو على بعد المكان . هذا وصاحب الرحلة قد نصب نفسه للعلم وشغل به دهره ، ووقف عليه فكره ، فلا يتجاذب عنان الكبائر ؛ فما القول فى ملك خواطره كأبوابه مطروقة ، وأمور خلق الله كأمور دينه به معذوقة[2] ، إذ هاجر

(١) أوزع : ألهم (٢) عذق فلانا بكذا : اختصه به .

إلى بقية الخير فى أضيق أوقاته ، وترك للعلم أشد ضروراته ، ووهب له أياما مع أنه فى الغزاة يحاسب لها نفسه على لحظاته وساعاته . وما يحسب المملوك أن كاتب اليمين كتب قط لملك رحلة فى طلب العلم إلا للرشيد هارون ، رحمة الله عليه ، على أنه خلط زيارة نبوية بطلب ، ورحل بولديه إلى مالك رحمةُ الله عليه لسماع هذا الموطأ الذى اتفقت الهمتان : الرشيدية والناصرية على الرغبة فى سماعه ، والرحلة لانتجاعه ، [1] وقد كان الرشيد سام مالكا أن يجعل له ولولديه : الأمين والمأمون مجلسا خاصا لإسماع مصنفه فقال له ما معناه : إنها سنة ابن عمك صلى الله عليه وسلم وغيرك من سترها ، ومثلك من نشرها ؛ فهذه رحلة ثانية فى الزمان ، وأولى فى الإيمان ، يكتبها الله للمولى بقلم كاتب اليمين ، ويقوم فيها مقام الرشيد ويقوم عليّـه وعثمانه[2] مقام المأمون والأمين ،... » .

والرسالة شاهد صدق على حب صلاح الدين للعلم ، ورحلته فى طلبه ، برغم ما كان لديه من أعمال وواجبات وجهاد يتطلب وقته كلّـه .

---

(١) انتجع القوم الكلأ : ذهبوا لطلبه فى مواضعه .

(٢) على وعثمان : ولدا صلاح الدين .

وهذا كتاب فاضلى يصف ابتهاج صلاح الدين بانتصار جيشه على الفرنج الذين ساروا فى البحر الأحمر ، ومضوا إلى جزيرة العرب يريدون قبر الرسول ؛ ففى شوال سنة ثمانى وسبعين وخمسمائة ، فكر صاحب الكرك الفرنجى عندما توالت عليه الهزائم من العرب المقيمين بقلعة أيلة : (مدينة العقبة) فى أن ينال من المسلمين ، وأن يغزو مدينة الرسول ، فبنى سفنا ، ونقل أخشابها على الجمال إلى الساحل ، حيث ركبها وشحنها بالرجال ، وآلات القتال ، ومضت فى البحر الأحمر نحو عيذاب على الشاطىء المصرى ، فقطعوا طريق التجار ، وقتلوا وأسروا ونهبوا ؛ ثم توجهوا إلى أرض الحجاز ، وأشرف أهل مدينة الرسول على خطر ، فورد الخبر إلى مصر وبها العادل أخو السلطان ، فأمر حسام الدين لؤلؤا قائد الأسطول المصرى أن يمضى إليهم ، فذهب إلى أسطول العدو ، وأوقع بسفنه ، ثم صعد إلى بر الحجاز ، وركب الخيل وراء الفرنج ، فحصرهم فى شعب لا ماء فيه ، وأسرهم ، وكتب السلطان إلى الملك العادل أن يضرب رقابهم جميعاً ، وهذا كتاب بقلم الفاضل إلى بغداد يعلن بهجة صلاح الدين ، ويصف المعركة ، إذ يقول : «كان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكراً ، وافتضّوا من البحر بكراً ، وعمروا مراكب

حربية شحنوها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد ، وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز وأثخنوا [1] وأوغلوا فى البلاد ، واشتدت مخافة أهل تلك الجوانب ، بل أهل القبلة لما أومض إليهم من خلل العواقب ، وما ظن المسلمون إلا أنها الساعة وقد نشر مطوى أشراطها [2] ، والدنيا وقد طوى منشور بساطها ؛ وانتُظر غضب الله لفناء بيته المحرم ، ومقام خليله الأكرم ، وتراث أنبيائه الأقدم ، وضريح نبيه الأعظم ، صلى الله عليه وسلم ؛ ورجوا أن تشحذ البصائر آية كآية هذا البيت إذ قصده أصحاب الفيل ، ووكلوا إلى الله الأمر وكان حسبهم ونعم الوكيل . وكان للفرنج مقصدان : أحدهما : قلعة أيلة التى هى على فوهة بحر الحجاز ومداخله ، والآخر : الخوض فى هذا البحر الذى تجاوره بلادهم من ساحله ، وانقسموا فريقين ، وسلكوا طريقين ؛ فأما الفريق الذى قصد قلعة « أيلة » فإنه قدر أن يمنع أهلها من مورد الماء الذى به قِوَامُ الحياة ، ويقاتلهم بنار العطش المشبوب الشباه [3] . وأما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن فقدّر

---

(١) أثخن فى القوم : بالغ وأكثر فى قتلهم .

(٢) الأشراط : العلامات .

(٣) شب النار : أوقدها . والشباة : حد كل شىء

أن يمنع طريق الحاج عن حجه ، ويحول بينه وبين فجه [1] ، ويأخذ تجار اليمن ، وأكارم عدن ، ويلم بسواحل الحجاز فيستبيح والعياذ بالله المحارم ، ويهيج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظائم . وكان الأخ سيف الدين بمصر قد عمر مراكب وفرقها على الفرقتين ، وأمرها بأن تطوى وراءهم الشقتين ، فأما السائرة إلى قلعة أيلة فإنها انقضت على مرابطى المساء ، انقضاض الجوارح [2] على بنات الماء [3] . وقذفتها قذف شهب السماء ، مسترقى سمع الظلماء . فأخذت مراكب العدو برمتها ، وقتلت أكثر مقاتلتها ، إلا من تعلق بهضبة وما كاد ، أو دخل فى شعب وما عاد ، فإن العربان اقتصوا آثارهم ، والتزموا إحضارهم ، فلم ينج منهم إلا من ينهى عن المعاودة ، ومن قد علم أن أمر الساعة واحدة ، وأما السائرة إلى بحر الحجاز فتمادت فى الساحل الحجازى ... فأخذت تجاراً وأخافت رفاقا ، ودلها على عورات البلاد من الأعراب من هو أشد كفراً ونفاقاً ، وهناك وقع عليها أصحابنا ، وأخذت المراكب بأسرها وفرفرنجها بعد إسلام المراكب ، وسلكوا فى الجبال مهاوى المهالك ، ومعاطن المعاطب ،

(١) الفج : الطريق .
(٢) الجوارح من الطير : المفترسة
(٣) بنات الماء : الأسماك .

وركب أصحابنا وراءهم خيل العرب يشلّونهم شلّا[1]، ويقتنصونهم أسراً وقتلا ؛ وما زالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلا ورجلا ، نهاراً وليلا ، حتى لم يتركوا عنهم خبراً ، ولم يبقوا لهم أثراً ، وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ... » .

وهذه الرسالة والرسائل الأخرى التى دارت حول هذه المعركة [2] دلت على ما امتلأ به قلب صلاح الدين من فرح بهذا النصر المبين .

* * *

وفى رسالة أخرى يوضح صلاح الدين هدفه من الاستيلاء على البلاد إذ يقول بقلم القاضى الفاضل : « فتحنا مدينة «حلب» بسلم ما كشفت بحرمتها قناعا ، وتسلمنا قلعتها ... وعوض صاحبها من بلاد الجزيرة ، ما اشترط عليه به الخدمة فى الجهاد بالعدة الموفورة ، فهى بيدنا بالحقيقة ؛ لأن مرادنا من البلاد رجالها ، لا أموالها ، وشوكتها ، لا زهرتها ، ومناظرتها للعدو لا نضرتها ، وأن يعظم فى العدو الكافر نكايتها ، لا أن تعذق بالولى المسلم ولايتها ... فالبلاد بأيدينا لنا مغنمها ، ولغيرنا مغرمها ، وفى

(١) شل الابل : طردها .

(٢) راجع الروضتين ٢ : ٣٥ وما يليها .

خدمتنا مالا نسمح به وهو عسكرنا ، وفى يده مالا نضن به وهو درهمنا ، ... فلم يخرج منا بلد إلا إلينا عاد عسكره ، وإنما استنبنا فيه من يحمل عنا مئونته ويدبره ، وتكون عساكره إلى عساكرنا مضافة ، ونتمثل قوله سبحانه وتعالى : « وقاتلوا المشركين كافة ، كما يقاتلونكم كافة » .

فالهدف هو توحيد البلاد ، وجمع الكلمة لمواجهة العدو ، ولا يعنيه إلا أن تجتمع القوى المبعثرة ، والجهود المتفرقة ، وكانت العهود تبرم بين صلاح الدين وغيره من حكام البلاد الإسلامية على الاجتماع والتضافر على جهاد الأعداء .

ويؤكد النثر رغبة صلاح الدين فى الوحدة التى لا ينتصر المسلمون بغيرها على العدو ، فيكتب القاضى الفاضل على لسانه رسالة إلى الخليفة ببغداد ، وفيها يقول : « ذكر تسلمه « حلب » وأنه لا يؤثر إلا أن تكون كلمة الله هى العليا لا غير ، وثغور المسلمين لها الرعاية ولا ضير ، ولا نختار إلا أن تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها ، لا متحاسدة بعتوها ، ولو أن أمور الحرب تصاحبها الشركة لما عز عليه أن يكون كثير المشاركين ، ولا ساءه أن تكون الدنيا كثيرة المالكين ، وإنما أمور الحرب لا تحتمل فى التدبير إلا الوحدة ، ... والله العالم

أنه لا يقاتل لعيش ألين من عيش ، ولا لغضب يملأ العيان من نزق ولا طيش ... » .

ويؤكد صلاح الدين دائماً هذا المعنى فى رسائله ، وأنه لا يبغى سوى هذه الوحدة التى تجلب القوة وتستلزم النصر على العدو الغاصب . أما أعداء هذه الوحدة فيصفهم صلاح الدين فى رسالة أخرى بعث بها إلى بغداد بقلم القاضى الفاضل ، إذ يقول واصفــا نفسه ، وموازنا بينه وبينهم ، : « وإذا ولاه أمير المؤمنين ثغرا لم يبت فى وسطه وأصبح فى طرفه ، وإذا سوغه بلدا هجر فى ظل خيمة ولم يقم فى ظل غرفه ، وإذا بات بات بسيف له ضجيعا ، وإذا أصبح أصبح ومعترك القتال له ربيعا ، لا كالذين يُغِيبون أبواب الخلافة ... وكأن الدنيا لهم إقطاع ، لا إيداع ، وكأن الإمارة لهم تخليد ، لا تقليد ، وكأن السلاح عندهم زينة لحامله ولابسه ، وكأن مال الخلق عندهم وديعة فلا عذر عندهم لمانعه ولا لحابسه ، وكأنهم فى البيوت دمى مصورة فى لزوم جدرها ، لافى مستحسنات صورها ، راضين من الدين بالعروة اللقبية ، ومن أعلى كلمته بما يسمعونه على الدرجات الخشبية ، ومن جهاد الخارجين على الدولة باستحسان الأخبار المهلبية ، ومن قتال الكفار بأنه فرض كفاية تقوم به

طائفة فيسقط عن الأخرى فى أخراها ... فلا يقنعون بأنهم لا يجاهدون إلى أن يمنعوا من يجاهد عنهم ويثاغر ، وبأنهم لا يساعدون المسلمين إلى أن يساعدوا عليهم عدوهم الكافر ، فقد تولّوا الشيطان تليدا وطريفا . ووطئوا الإسلام وأهله وطئا عنيفا ، فإذا جاء وعد الآخرة جاء الله بهم فى زمرة الشيطان لفيفا » .

وهذه الرسالة صريحة فى وصف ما كان يعانيه صلاح الدين من أعداء الوحدة ، أولئك الذين لاهم لهم إلا الاحتفاظ بالسلطان ومظاهر الإمارة وحياة الترف التى يعيشون فيها ، لا يعنون أنفسهم مشقة الجهاد ، بل لا يرضون أن يقفوا موقف سلبيا فحسب ، فظاهروا أعداء الإسلام وأعانوهم . ومن ذلك يبدو أن صلاح الدين كان يحارب عدوين : الفرنج ومن يظاهرونهم من أعداء الوحدة والإسلام ؛ وكان بوده أن يقضى على أولئك ؛ لكى يتفرغ لقتال هؤلاء .

* * *

وقد مرض صلاح الدين فأدرك المسلمون قيمة هذا الرجل ، وعرفوا مكانه فى العمل على وحدة الإسلام ؛ لكى يصمد أمام العدو من ناحية ، وليلقى بالعدو إلى البحر من ناحية ثانية ،

فلا غرو أن يبتهج النثر بعودة الصحة إليه ، وأن يبشر أرجاء البلاد بزوال غمة المرض عن الأمل المرجو للمسلمين ، وهذا كتاب فاضلي أرسل من دمشق إلى مصر يبشر بسلامة صلاح الدين من المرض ، ويقول : « إن العافية الناصرية قد استفاضت أخبارها ، وفاضت أنوارها وآثارها ، وولت العلة والحمدُ لله وأطفئت نارها ، وانجلى غبارها ، وخمد شرارها ، وما كان إلا فلتة وقى الله شرها ، وعظيمة كفى الإسلام أمرَها ، ونوبة امتحن الله بها نفوسنا فرأى أقل ما عندها صبرها ، وما كان الله ليضيع الدعاء وقد أخلصته القلوب ، ولا ليوقف الإجابة وإن سدت طريقها الذنوب ، ولا يخلف وعد فرج وقد أيس الصاحب والمصحوب .

نعيٌّ زاد فيه الدهرُ ميما فاصبح بعد بؤساه نعيما
وما صدق النذير به ؛ لأني رأيت الشمس تطلع والنجوما

وقد استقبل مولانا السلطان الملك الناصر العافية غضة جديدة ، والعزمة ماضية حديدة ، والنشاط إلى الجنة مبسوط البساط ، وقد انقضى الحساب وجزنا الصراط ، وعرضنا نحن على الأهوال التي من خوفها كاد الجمل يدخل في سم الخياط » .

وهذه الرسالة ناطقة بالبهجة التي استولت على النفوس

عندما استرد السلطان عافيته وصحته ، وبما كان المسلمون يشعرون به إزاء مرض صلاح من فداحة الأمر وشدته . وأنه « عظيمة كفى الإسلام أمرها » ، وأن الابتهاج بالصحة إنما كان لأجل استئناف الجهاد ضد أعداء البلاد . ولذلك بدا بعودة الصحة النشاط إلى الجهاد ، حتى كادت السيوف تهتز فى أغمادها .

* * *

وكانت كتب القاضى الفاضل تحمل إلى أرجاء العالم الإسلامى أنباء المعارك التى يخوضها صلاح الدين .

وقد استطاع هذا الكاتب أن يعبر عن عواطف صلاح الدين إزاء الفتوح التى قام بها ، وأنها عادت على الإسلام بنشر كلمته ، وعلى بلاد الشام بنشر السلام بين ربوعه .

كما دلت على أن صلاح الدين كان بعيد النظر يؤمن بأن العدو يعد العدة ، ويحشد الجموع ليلتقى بصلاح الدين فى معركة يستعيد بها ما فقده من أرض كان يغتصبها ، ولذلك لم يغفل السلطان عن حشد الجيوش استعدادا لهذا اللقاء المنتظر .

وأحب أن أختم هذا الفصل بتلك الرسالة التى كتبها القاضى الفاضل فى ساعة موت السلطان ، وبعث بها إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب ، وفيها يقول :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة . إن زلزلة الساعة شىء عظيم . كتبت إلى مولانا السلطان الملك الظاهر ، أحسن الله عزاءه ، وجبر مصابه ، وجعل فيه الخلف لمماليك المرحوم وأصحابه ، وقد زلزل المسلمون زلزالا شديدا ، وقد حفرت الدموع المحاجر ، وبلغت القلوب الحناجر ؛ وقد ودعت أباك ومخدومى وداعا لا تلاقى بعده ، وقد قبلت وجهه عنى وعنك ، وأسلمته إلى الله تعالى مغلوب الحيلة ، ضعيف القوة ، راضيا عن الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ وبالباب من الجنود المجندة ، والأسلحة المغمدة ، مالا يدفع البلاء ، ولا يرد القضاء ؛ وتدمع العين ويخشع القلب ، ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، وإنا عليك يا يوسف لمحزونون ؛ وأما الوصايا فما يحتاج إليها ، والآراء فقد شغلنى المصاب عنها ؛ وأما لائح الأمر فإنه إن وقع اتفاق فما عدمتم إلا شخصه الكريم ، وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلة أهونها موته ، وهو الهول العظيم . والسلام » .

وفى هذه الرسالة يبدو ما نزل بالمسلمين من فجيعة مذهلة عند موت صلاح الدين ، حتى لكأن الأرض قد زلزلت زلزالها ، وقد أودع القاضى الفاضل كل عواطفه وإحساساته فى هذه القبلة على جبين الراحل الكريم ؛ كما يبدو فى الرسالة غيرة الكاتب

على دولة صلاح الدين بعد وفاته ، وحبه فى ان يظل الإخوة مجتمعى الـكلمة ، حتى تصبح الدولة لهم ، ولا يتمزق شمل هذه الإمبراطورية التى وضع أساسها والدهم العظيم .

وكما حزن القاضى الفاضل على فقدان صلاح الدين أبدى ابن شداد ألمه لذلك عندما استعار لسان أبى تمام عندما قال :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

لأنه كان ـ رحمه الله تعالى ـ من محاسن الدنيا وغرائبها ، كما قال صاحب النجوم الزاهرة ؛ ولا تزال ذكراه إلى اليوم حية فى القلوب ، محببة إلى النفوس .

* * *

وبعد ، فقد احتفل الشعر والنثر بصلاح الدين ، ووجدا فيه الأمل الذى تتطلع إليه البلاد الإسلامية ، لـكى تسترد على يديه جزءا مسلوبا من وطنها الحبيب ، ورأيا فيه إنسانا نموذجيا فى طباعه وأخلاقه ، فسجلا له هذه الطباع والأخلاق ، ومجدا فيه السمو الخلقى والنبل النفسى . ووقفا إلى جانبه يتتبعان خطواته ، ويباركان ما يقوم به من الجهود فى سبيل الوصول إلى تحقيق هدفه الـكبير .

وكانت السمة البارزة من بين سماته الجليلة سمة الجهاد وحبه

والإقبال عليه يريد الا يصرفه عنه صارف ، فاستغرق ذلك كثيراً مما قرضه الشعراء ، وما دبجه الكتاب ، فكتب ابن شداد معظم صفحات كتابه في وصف ذلك الجهاد وتصوير المعارك ، وألف العماد كتابه : الفيح القسى فى الحديث عن وقائع صلاح الدين ، وشغل ذلك الجهاد كثيراً من رسائل القاضى الفاضل .

وإذا كان لنا أن نفرق بين الشعر والنثر اللذين دارا حول صلاح الدين فإن لنا أن نعد الشعر كله تصويرا لعواطف الشعب نحو صلاح الدين ، فقد ترجم الشعراء عن هذه العواطف ، ودار الكثير من أبيات قصائدهم على ألسنة الناس يعبرون بها عما يجول فى نفوسهم نحو بطلهم المحبوب .

أما النثر فمنه ما كان صدى لإعجاب الناس بصلاح الدين ككتابى ابن شداد والعماد ، فكان نثراً كالشعر مليئا بالعواطف من كاتبيه . ومنه ما أبان عن عواطف صلاح الدين إزاء الأحداث التى مرت به فى حياته المباركة ، وعن آرائه فيما انتهجه من سلوك وخطط ، كما نرى ذلك فى رسائل القاضى الفاضل ؛ فقد كان يعنى ببيان وجهة نظر السلطان فيما تم على يديه من أعمال . ولذلك كان على المؤرخين أن يرجعوا إلى هذه الرسائل ؛

ليتبينوا فيها الدوافع التى جعلت صلاح الدين يتجه اتجاها معينا ، ولا سيما أن القاضى الفاضل كان لسانه منذ ولى الوزارة للعاضد إلى أن مات .

وكثيراً ما اشترك الشعر والنثر فى موضوع واحد ؛ فنستطيع أن نرى فى الشعر صورة الشعب وعاطفته إزاء صلاح الدين عندما تم ذلك الحدث ؛ ونستطيع أن نرى فى نثر القاضى الفاضل عاطفة صلاح الدين ورأيه إزاء ذلك الحدث نفسه .

ولا نأخذ على هذا النثر إلا أنه كان كنثر عصره يعنى بالصناعة كلما أمكنه ذلك ، ويجد الجمال الفنى فى إثقال الجمل بالحلى وألوان الزخارف ، مما يتطلب الريث والتمهل فى قراءته أحيانا لكى يصل الإنسان إلى معناه . ولكنه برغم ذلك أدى رسالته يومئذ ، وكان لهذا النهج الصناعى فى ذلك الوقت أثره فى نفوس الناس ، ونستطيع اليوم أن نتبين ما كان الكتاب يريدون أن يدبجوه فى لغة يبذلون فى أناقتها كل ما يملكون .

المكتبة الثقافية

- آول مجمـــوعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة .
- تيسر لكل قارىء أن يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعـــرفة بأقلام أساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر . فى أوله وفى منتصفه

الكتاب القادم

الحب الإلهى
في التصوف الإسلامى

للدكتور محمد مصطفى حلمى

أول نوفمبر ١٩٦٠